

أقوام في القرآن الكريم

يوسف عبد الله فيصل البركاتي

٢ شركة العبيكان للتعليم، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البركاتي، يوسف عبد الله فيصل

أقوام في القرآن / يوسف عبد الله فيصل

البركاتي - الرياض، ١٤٤٠ هـ

٣٨٢ ص : ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٨٣٠٦-٤

١- قصص القرآن أ. العنوان

١٤٤٠ / ٢١١١

ديوي ٢٢٩,٥

النشر
العبيكان
Obekon
Publishing

oobeikanpub oobeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية



للحصول على كتبنا الصوتية

نون



Kitab Sawti



storytel



حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

نشر وتوزيع
العبيكان
Obekon

المملكة العربية السعودية-الرياض

طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة

هاتف: +٩٦٦ ١١ ٤٨٠٨٦٥٤، فاكس: +٩٦٦ ١١ ٤٨٠٨٦٦٦

ص.ب: ٦٧٢٢٢ الرياض ١١٥١٧

للحصول على كتبنا الإلكترونية

amazon kindle



Google Play



جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.



المحتويات

المقدمة	١٣
القسم الأول: الأنبياء وأقوامهم المعذبون	١٩
قوم نوح عليه السلام	٢١
قوم هود عليه السلام	٤٣
قوم صالح عليه السلام	٦٧
إبراهيم الخليل عليه السلام	٨٧
قوم لوط عليه السلام	١٢٧
قوم شعيب عليه السلام	١٤٥
قوم موسى وهارون عليهما السلام	١٦٣
قوم حزقيل	١٩٧
قوم إلياس عليه السلام	٢٠٥
قوم حنظلة عليه السلام	٢١١
القسم الثاني: الأنبياء وأقوامهم الصالحون	٢١٧
قوم يوسف عليه السلام	٢١٩
قوم يونس عليه السلام	٢٣١
قوم داود عليه السلام	٢٤١
قوم سليمان عليه السلام	٢٥٥
قوم عيسى عليه السلام	٢٧٣
الأقوام المتفرقة	٢٨٥
أصحاب القرية	٢٨٧

٢٩٣	أصحاب السبت
٣٠١	يأجوج ومأجوج
٣١١	أصحاب الكهف
٣٢٣	أصحاب الجنة
٣٢٩	أصحاب الأخدود
٣٣٩	السييل العرم
٣٤٧	الروم
٣٥٣	أصحاب الفيل
٣٦٥	الخاتمة
٣٦٧	المراجع والمصادر

الإهداء

إلى أمي الغالية الدكتورة

منى يوسف جمل الليل

التي زينت كتابي برسوماتها الجميلة

إلى أبي العزيز اللواء

عبدالله فيصل البركاتي

الذي أفخر به

إلى من آثروني على أنفسهم، وأظهروا لي جمال الحياة...

أخي وأختي

أهدي هذا الجهد المتواضع راجياً الله تعالى أن يجازيهم عني خيراً.

الشكر والتقدير

أتقدم بأسمى آيات الشكر والامتنان والعرفان والتقدير والمحبة،
إلى جدي المؤلف اللواء الركن م:

السيد يوسف بن عبدالله جمل الليل

على الحب الذي قدمه ابتداءً من مساندته وإيمانه الكبير بي، وتحفيزه
الدائم، وعمله على تذليل كل الصعوبات، ليدفعني للنجاح، فكان خير
مثل أعلى، سائلاً الله ﷻ أن يجعل جهوده معي في ميزان حسناته.



الشكر والتقدير

أتقدم بالشكر والامتنان للأستاذ الفاضل الشيخ:

صبري بن سلامة شاهين

المحقق والمراجع في شركة العبيكان للنشر، للدعم الكبير الذي
قدمه في تحقيق الكتاب، سائلاً الله ﷻ أن يجعله في ميزان حسناته.



المقدمة

الحمد لله الذي نزل على عبده الفرقان، ليكون للعالمين نذيرًا، الذي له ملك السماوات والأرض، وخلق كل شيء، فقدره تقديرًا، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالقرآن الكريم كتابنا العظيم، المنزل على سيد الخلق، الذي لا نضل بعده أبدًا، لقد منَّ الله عليَّ بدراسة آيات هذا الكتاب العظيم وتأملها، وخاصة بعد أن أصدرت الكتاب الأول من (سلسلة القرآن الكريم: شخصيات في القرآن الكريم)، مما عمق مفهومي بأن هذا الكتاب لم يكن فقط للعبادة والذكر بكل أشكالهما، بل كان منهجًا كاملاً لتنظيم حياتنا بكل ما فيها، فعرفنا بكل من سبقنا للعظة والاعتبار، وإن الباحث مهما كان علمه ليعجز أن يللم بكل ما يحويه من علوم، ومن هذا المنظار أحببت مشاركة قرائي ببعض ما استمتعت بمعرفته، وبجهد المتواضع بجمع هذه القصص التي تحكي لنا حياة أقوام عاشوا قبلنا على هذه الأرض، وجاء فيه بيان حياتهم وما اكتسبوه فكان جزاء أمرهم مما ذكر في هذا الكتاب العظيم.

ومن حكمة الله ﷻ أنه بيّن لنا الأمور المهمة والأساسية في القرآن الكريم بأساليب مختلفة، منها ما هو خطاب مباشر للإنسان أو للمؤمنين، ومنها ما يأتي بضرب الأمثال، وكذلك منها ما يرد في صورة قصص، وإذا كانت القصص متعلقة بالأنبياء والمرسلين في الأمم السابقة، فإنها جاءت لبيان العظة والاعتبار.

في كتابي هذا (أقوام في القرآن الكريم) تناولت قصص الأقوام السابقة، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهدفني هو أن أقوم بعرض هذه القصص وتناولها للوقوف على عظمة الخالق وقدرته، وللاعتبار بما حدث لهم، فبعد أن لجأت إلى الله سبحانه، ثم استعنت بكثير من الكتب والمراجع، التي تناولت هذه الموضوعات، وحاولت قدر المستطاع اختيار الرواية الصحيحة المعتمدة عند أهل العلم، وكذا المراجع التي اعتمدها العلماء، لتحقيق هدفي من الوصول إلى أصح الروايات ومعرفة كافة ما يتعلق بقصص الأقوام السابقين.

وكتابي هذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام، فكان **القسم الأول: (الأنبياء وأقوامهم المعذبون)**.

تناولت فيه الأقوام الذين بعث الله لهم أنبياء، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والطريق المستقيم الذي يؤدي إلى ذلك، لكن الجحود والنكران والانغماس في الضلال والإصرار على الكفر كان سبباً في هلاكهم، فأصبحوا أقواماً بائدة غابرة في التاريخ.

بينما في القسم الثاني: (الأنبياء وأقوامهم الصالحون)، تحدثت فيه عن الأقوام التي صدقوا رسلهم، وآزرهم، وآمنوا بما أرسلوا به، فكان سببًا لنجاتهم وعدم هلاكهم.

وفي القسم الثالث: (أقوام متفرقة)، تناولت فيه قصصًا مختلفة، لأقوام ذكروا في القرآن، وكان في ذكرهم أخذ العظة والعبرة، سواء بالهداية أو الضلال، وسوف أتناول في ختام كل قصة من قصص الأقوام العظات والعبر التي يمكن الاستفادة منها.

فالكتاب يجمع قصص الأمم السابقة، ويستعرض أنسابهم وأوصافهم وأماكن وجودهم وحياتهم ومجتمعاتهم، والرسائل التي بعثوا لهم، وكيفية تعاملهم معهم، سواء كان بالتكذيب والإعراض أو بالتصديق والنصرة، وكيف كانت عاقبة أمرهم: إما بالهلاك، وأنواعه كثيرة، منها الطوفان، والصيحة وغيرهما، أو النعيم في الدنيا والآخرة. أما ذكر أقوام مختلفة في القرآن فيكون للتعريف بهم، وبما أحدثت قصصهم من تأثير في حياتنا، وأيضًا كل قصة من القصص تبين لنا عظمة رب العالمين وقدرته سبحانه وتعالى.

ولكل جهد يقابله صعوبات، يقف عندها الشخص المجتهد، ليجعل ثمرة جهده وعمله الجاد صالحة، ويستفيد منها كل من تناولها، فالبحث في كتب التفسير وجمع القصص التي وردت في القرآن الكريم بداية، كانت من الصعوبة لأنها أساس الموضوع، وأيضًا لصعوبة التأكد من صحة تفاسير هذه القصص، واختيار المصادر الموثقة، كما واجهتني

صعوبة في تحديد الكثير من الأقوام، من جهة تاريخها، وأين سكنت؟ إن كانت صحيحة أم لا؟ وذلك لتضارب آراء العديد من العلماء حول هذا الأمر، ولكن بفضل الله وتوفيقه توصلت بعد طول بحث إلى أصدق الروايات، وأصحها.

وقبل أن أختم مقدمتي أتوجه بالشكر والامتنان الكبير لكل من شجعني، ووقف بجانبي، وآمن بعملي: أساتذتي الأفاضل، أعضاء دار النشر الكرام، أصدقائي الأعزاء، وكل الشكر ممزوج بالحب لأسرتي الكبيرة العظيمة، لكل فرد منهم كان صغيرًا أو كبيرًا، ولي الفخر بانتمائي لهم.

يوسف عبدالله فيصل البركاتي

أقسام الكتاب

القسم الأول

الأنبياء وأقوامهم المعذبون

القسم الثاني

الأنبياء وأقوامهم الصالحون

القسم الثالث

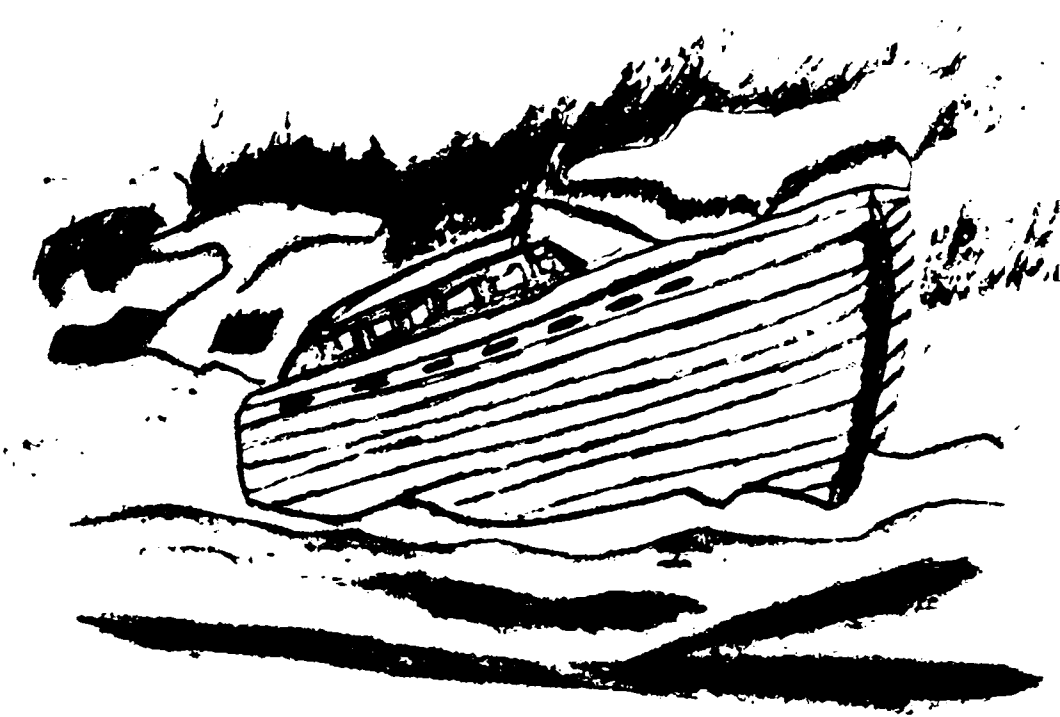
الأقوام المتفرقة

القسم الأول

الأنبياء وأقوامهم المعذبون

- قوم نوح
- قوم هود (عاد)
- قوم صالح
- قوم إبراهيم
- قوم لوط
- قوم شعيب
- قوم حنظلة
- قوم موسى وهارون
- قوم حزقيل
- قوم إلياس

قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَام



نسبهم

ينتسبون إلى نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَام: وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو إدريس - بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عَلَيْهِ السَّلَام.

كان مولده بعد وفاة آدم بمئة وست وعشرين سنة، فيما ذكره ابن جرير وغيره. وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم، يكون بين مولد نوح وموت آدم مئة وست وأربعون سنة، وكان بينهما عشرة قرون، كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه: أن أبا أمامة قال: إن رجلاً قال: يارسول الله أنبي كان آدم؟ قال: نعم مكلم. قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون^(١).

موقعهم الجغرافي

قيل في العراق.

صفاتهم

الكبر، واشتهروا بالصناعة.

(١). أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٩/١٤ رقم ٦١٩٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٨/٦ - ٣٥٩ رقم ٢٦٦٨)، وقال: وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم.

حياتهم

ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين^(١).

ومعنى هذا أن هذه القرون التي تفصل بين آدم ونوح كان أهلها على توحيد الله تعالى وتطبيق شريعته. فلما انتشروا وكثروا، وطال بهم العهد، بدأ الشرك يدب إليهم ويتنشر بينهم بسبب الجهل وغياب العلم والغلو في تعظيم الصالحين، فقد ذكر المفسرون في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتفسير قول الله **﴿وَقَالُوا لَا تَنْدُرُنَّ ۚ الْهَتَكُ ۚ وَلَا تَنْدُرُنَّ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]**. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطفان بالجوف، عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون

(١). أخرجه الحاكم (٥٩٦/٢ رقم ٤٠٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقواه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٥٤/٧-٨٥٥)، وقال: وفيه فائدة مهمة؛ وهي أن الناس كانوا في أول عهدهم أمة واحدة على التوحيد الخالص، ثم طرأ عليهم الشرك، خلافاً لقول بعض الفلاسفة والملاحدة: إن الأصل فيهم الشرك، ثم طرأ عليهم التوحيد! ويظل قولهم هذا الحديث وغيره مما هو نص في نبوة أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى أدلة أخرى كنت ذكرت بعضها في كتابي تحذير الساجد، فراجع، فإنه مهم. وانظر: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة (ص ٩٠).

أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبت^(١).

إن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والأصل في عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ مقابرهم مزارات والصلاة عندها، كما يستفاد من حديث ابن عباس وغيره عند البخاري: **«أَنْ وَدَّاَ وَسَوَاعًا وَيَعُوْثَ وَيَعُوْقَ وَنَسْرًا»**، التي اتخذها قوم نوح أصناماً، كانت أسماء رجال صالحين، اتخذ الناس لهم صوراً بعد موتهم، ليستأنسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا أحوالهم الصالحة، ليجتهدوا كاجتهادهم، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان: أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور، ويعظمونها، فاعبدوها، فحذر النبي ﷺ من مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إليه. وجاء في أحاديث أخرى: أن النهي عن اتخاذ القبور مساجد كان في مرض النبي ﷺ الذي مات فيه. وفي رواية لمسلم: كان قبل أن يتوفى بخمس. وفائدة التنصيص على زمن النهي: الإشارة إلى أنه من الأمر المحكم، الذي لم ينسخ، لكونه صدر في آخر حياته ﷺ، وكأنه ﷺ لما علم بقرب أجله خشي أن يفعل بعض أمته بقبره الشريف ما فعلته اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم، فنهى عن ذلك.

(١). أخرجه البخاري (١٦٠/٦ رقم ٤٩٢٠)، وانظر: تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، ت: الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م (٣٠٤/٢٣).

قال التوربشتي: هو مخرج على الوجهين، أحدهما: كانوا يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لهم، وقصد العبادة في ذلك. وثانيهما: أنهم كانوا يتحرون الصلاة في مدافن الأنبياء، والتوجه إلى قبورهم في حالة الصلاة والعبادة لله، نظرًا منهم أن ذلك الصنيع أعظم موقعًا عند الله لاشتماله على الأمرين: العبادة، والمبالغة في تعظيم الأنبياء. وكلا الطريقتين غير مرضية، أما الأولى فشرك جلي. وأما الثانية فلما فيها من معنى الإشراك بالله ﷻ وإن كان خفيًا؛ والدليل على ذم الوجهين قوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنا، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١). والوجه الأول: أظهر وأشبه، كذا قال التوربشتي.

وقال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها^(٢).

فهذه أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا حزن عليهم قومهم حزنًا شديدًا، فجاءهم الشيطان وزين لهم أن يصنعوا تماثيل على صورهم، ليتذكروهم بها، ولم يعبدوهم في تلك الفترة،

(١). أخرجه مالك (١٧٢/١ رقم ٨٥)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٣٤/١ رقم ٧٥٠).

(٢). الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني: أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية (١٥٦/٨).

فلما انقضى ذلك الجيل، وجاء أحفادهم أوحى إليهم الشيطان: أن أسلافكم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم من دون الله تعالى^(١).

قال ابن الأثير: قد اختلف العلماء في ديانة القوم الذين أرسل إليهم نوح، فمنهم من قال: إنهم كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله تعالى من ركوب الفواحش، والكفر، وشرب الخمر، والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله. فلما تمادى قوم نوح على كفرهم، وعصيانهم بعث الله إليهم نوحًا يحذرهم بأسه، ونقمته، ويدعوهم إلى التوبة، والرجوع إلى الحق، والعمل بما أمر الله تعالى، وأرسل نوح وهو ابن خمسين سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

قال ابن إسحاق وغيره: إن قوم نوح كانوا يبطشون به، فيخنفونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لي لقومي، فإنهم لا يعلمون! حتى إذا تمادوا في معصيتهم، وعظمت منهم الخطيئة، وتناول عليه وعليهم الشآن، اشتد عليه البلاء، فلما طال ذلك عليه، ورأى الأولاد شرًا من الآباء، قال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن تك لك فيهم حاجة فاهدهم، وإن يك غير ذلك فصيرني إلى أن تحكم فيهم. فأوحى إليه: ﴿وَأَوْحِ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، فلما يئس من إيمانهم دعا عليهم، فقال: ﴿وَقَالَ

(١). انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كته وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز ابن عبدالله بن باز، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ (١/٥٢٥).

نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ [نوح: ٢٦]، إلى آخر القصة. فلما شكّا إلى الله، واستنصره عليهم، أوحى الله إليه ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فأقبل نوح على عمل الفلك، ولها عن دعاء قومه، وجعل يهيئ عتاد الفلك من الخشب، والحديد، والقار، وغيرها مما لا يصلحه سواه، وجعل قومه يمرون به، وهو في عمله فيسخرّون منه، فيقول: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ فسوف تعلمون ﴿هود: ٣٨-٣٩﴾. قال: ويقولون: يا نوح قد صرت نجارًا بعد النبوة! ^(١).

إن ما جرى لنوح عليه السلام مع قومه مأخوذ من الكتاب والسنة والآثار، فقد قدمنا عن ابن عباس: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. رواه البخاري، وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف، ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح،

(١). الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، ابن الأثير، ت: عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م (١/٦٢٢-٦٢٤).

فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبت. قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

وعن عروة بن الزبير أنه قال: ود، ويغوث، ويعوق، وسواع، ونسر، أولاد آدم. وكان ود أكبرهم وأبرهم به. وكان رجلًا مسلمًا، وكان محببًا في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان، ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديكم فتذكرونه. قالوا: نعم. فصور لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديم، وجعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالًا مثله، ليكون له في بيته فتذكرونه. قالوا: نعم. قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالًا مثله، فأقبلوا، فجعلوا يذكرونه به. قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال: وتناسلوا، ودرس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم. فكان أول ما عبد غير الله ود الصنم الذي سموه ودًا.

ومقتضى هذا السياق: أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس، وقد ذكر أنه لما تناولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة، ليكون أثبت لها، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله ﷻ، ولهم في عبادتها مسالك كثيرة.

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة، يقال لها مارية. فذكرتا من حسننها وتصاوير فيها، قال ﷺ: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله ﷻ» (١).

والمقصود: أن الفساد لما انتشر في الأرض، وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحاً عَلَيْهِ السَّلَام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَّغْنَا، فَيَقُولُ: رَبِّي قَدْ غَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ. نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ:

(١). أخرجه البخاري (٩٤/١ رقم ٤٣٤)، ومسلم (٣٧٥/١ رقم ٥٢٨).

يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك ﷺ، فيقول: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله. نفسي نفسي»^(١). وذكر تمام الحديث بطوله، كما أورده البخاري في قصة نوح. فلما بعث الله نوحاً عَلَيْهِ السَّلَام دعاهم إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن لا يعبدوا معه صنماً، ولا تمثالاً، ولا طاغوتاً، وأن يعترفوا بوحديته، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]. وقال فيه، وفي إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]. أي: كل نبي من بعد نوح فمن ذريته، وكذلك إبراهيم. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال نوح لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْتَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]. وقال: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ

(١). أخرجه البخاري (١٣٤/٤ رقم ٣٣٤٠)، ومسلم (١٨٤/١ رقم ١٩٤).

مُتَيْنَ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتَفُوا وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي مَا ذُنِبُوا وَاسْتَفْسَحُوا يَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَجَعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ [نوح: ٢-١٤].

الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا فلم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به. وتوعدهم بالرجم والإخراج، ونالوا منهم، وبالغوا في أمرهم، قال الملائكة من قومه. أي:

السادة الكبراء منهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ [الأعراف: ٦٠-٦١].

أي: لست كما تزعمون من أنني ضال، بل على الهدى المستقيم، رسول من رب العالمين، أي: الذي يقول للشيء كن فيكون ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِي بِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً، أي: فصيحاً ناصحاً أعلم الناس بالله ﷻ. وقالوا له فيما قالوا: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِي بِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٢٧]. تعجبوا أن يكون بشراً

رسولاً، وتنقصوا بمن اتبعه، ورأوهم أراذلهم، وقد قيل: إنهم كانوا من أقياد الناس، وهم ضعفاؤهم، كما قال هرقل: وهم أتباع الرسل. وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق. وقولهم: بادي الرأي. أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية، وهذا الذي ذمهم به هو عين ما يمدحون بسببه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية، ولا فكر، ولا نظر. بل يجب اتباعه، والانقياد له متى ظهر، ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، غير أبي بكر، فإنه لم يتلعم»** ^(١).

ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضاً سريعة من غير نظر، ولا روية؛ لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه. وقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» ^(٢). رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقول كفرة قوم نوح له، ولمن آمن به: **﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾** [هود: ٢٧]. أي: لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان، ولا مزية علينا: **﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾**

(١). أخرجه ابن بطّة في الإبانة الكبرى (٤٥٢/٩) رقم ٩٩، وأبو بكر الدينوري في المجالسة

وجواهر العلم (٤٦٩/٣) رقم ١٠٧٧.

(٢). أخرجه مسلم (١٨٥٧/٤) رقم ٢٣٨٧.

بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَذِبِكُمْ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَءَاثِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْ مُكْمُوها وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿[هود: ٢٧-٢٨]﴾. وهذا تلميح في الخطاب معهم، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهذا منه يقول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَءَاثِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، أي النبوة والرسالة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾، أي فلم تفهموها، ولم تهتدوا إليها ﴿أَنْزِلْ مُكْمُوها﴾، أي أغضبكم بها، ونجبركم عليها ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]. أي: ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه ﴿وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]. أي: لست أريد منكم أجر على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم، إن أطلب ذلك إلا من الله، الذي ثوابه خير لي، وأبقى مما تعطونني أنتم. وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُ قَوْمِهِمْ وَلَكِنِّي أَنْزَلْتُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩]، كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك فأبى عليهم ذلك، وقال: إنهم ملاقو ربهم، فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠]. ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين: كعمار، وصهيب، وبلال، وخباب، وأشباههم نهاه الله عن ذلك: ﴿وَلَا أَقُولُ

لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴿[هود: ٣١]﴾. أي بل أنا عبد رسول لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به. ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه، ولا أملك لنفسي نفعًا، ولا ضرًا إلا ما شاء الله ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ ﴿[هود: ٣١]﴾. يعني من أتباعه ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿[هود: ٣١]﴾. أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة الله أعلم بهم، وسيجازيهم على ما في نفوسهم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قالوا في الموضع الآخر: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿[الشعراء: ١١١-١١٥]﴾.

وقد تطاول الزمان، والمجادلة بينه وبينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿[العنكبوت: ١٤]﴾. أي: ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم، وكان كلما انقضى جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به. ومحاربته، ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه: أن لا يؤمن بنوح أبدًا ما عاش ودائمًا ما بقي، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا﴾ ﴿[نوح: ٢٧]﴾. ولهذا قالوا: ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿[هود: ٣٢-٣٣]﴾. أي: من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته، هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو

الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَئِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وهذه تعزية لنوح عَلَيْهِ السَّلَام في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، وتسلية له عما كان منهم إليه ﴿فَلَا نَبْتَئِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]. أي: لا يسوأنك ما جرى فإن النصر قريب، والنبأ عجيب ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَئِسُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وذلك أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَام لما يئس من صلاحهم، وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته، ومخالفته، وتكذيبه بكل طريق من فعال، ومقال دعا عليهم دعوة غضب لله، فلبى الله دعوته وأجاب طلبته، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَّمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ١١٦ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ١١٧ ﴿فَأَفْنَعُ بَنِيَّ وَيَنْتَهُمُ فَتَحًا وَيَجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧-١١٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أَغْرِقُوا فَأَذْجَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ٢٥ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ٢٦ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْضِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يُلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٥-٢٧]. أي يستهزئون به استبعادًا لوقوع ما توعدهم به، قال: ﴿وَيَصْنَعُ

أَلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا
 نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ [هود: ٣٨]. أي: نحن الذين نسخر منكم،
 ونتعجب منكم في استمراركم على كفركم، وعنادكم الذي يقتضي
 وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ
 يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]. وقد كانت سجاياهم الكفر
 الغليظ، والعناد البالغ في الدنيا. وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضاً
 أن يكون جاءهم من الله رسول، كما قال البخاري: عن أبي سعيد قال:
 قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح عليه السلام، وأمته فيقول الله ﷻ: هل
 بلغت. فيقول: نعم. أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم. فيقولون: لا ما
 جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك. فيقول: محمد وأمته. فتشهد
 أنه قد بلغ». وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ
 عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ^(١).

والوسط: العدل، فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق
 المصدوق بأن الله قد بعث نوحًا بالحق، وأنزل عليه الحق وأمره به.
 وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئاً مما ينفعهم
 في دينهم إلا وقد أمرهم به. ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه
 وحذرهم منه. وهكذا شأن جميع الرسل حتى إنه حذر قومه المسيح
 الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم، حذراً عليهم وشفقة
 ورحمة بهم، كما قال البخاري: قال ابن عمر: قام رسول الله ﷺ
 في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: «إني

(١). أخرجه البخاري (١٣٤/٤) رقم (٣٣٣٩).

لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكنني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور»^(١).

وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً، ما حدث به نبي قومه؟ إنه أعور، وأنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، والتي يقول: إنها الجنة هي النار، واني أنذرکم كما أنذر به نوح قومه»^{(٢)(٣)}.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم التويجري: وقد أرسل الله نوحاً إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله وحده: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادًا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فطغوا، وتمردوا واستكبروا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وقد دعا نوح قومه ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. ولكن قوم نوح لم يستجيبوا

(١). أخرجه البخاري (٦٠/٩) رقم (٧١٢٧).

(٢). أخرجه البخاري (١٣٤/٤) رقم (٣٣٣٨)، ومسلم (٢٢٥٠/٤) رقم (٢٩٣٦)،.

(٣). انظر: البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت: عبدالله ابن عبدالمحسن التركي، دار هجر، ط ١، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م، (٢٤٧/١-٢٥٨).

له، ولم ينتفعوا بنصحه، بل أنكر أشرافهم نبوته، واتهموه بالكذب، وقالوا: إن أتباعه من الفقراء والضعفاء، الذين لا فكر لهم ولا رؤية. قال تعالى: ﴿أُبَيِّنُكُمْ لِرَبِّي وَأُنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٢٧]. واستمر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوة قومه، وتلطف بهم، ودعاهم في كل مناسبة ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاً، فما آمن معه إلا قليل، أما الأكثرون فقد كذبوه، وسخروا منه، واتهموه بالجنون، وحالوا بينه وبين تبليغ رسالة ربه، وهددوه بالرجم إن لم ينته: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. ولكن نوح لم يبال بتهديدهم، فواصل دعوته لهم، حتى إذا ضاق ذرعاً باستكبارهم، واستهزائهم لجأ إلى ربه بهذه الشكوى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي إِذَاعِهِمْ وَاسْتَفْسَحُوا يَدِيَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ٥-١٢]. فلما أيس نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من إيمان قومه، وهددوه بالقتل وأذوه ومن آمن معه، فما كان منه إلا أن دعا عليهم، بقوله: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٣١﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]. وقد استجاب الله دعاء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقضى بهلاك قوم نوح بالغرق، وأمره أن يصنع سفينة النجاة، ليركب فيها والمؤمنون معه: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَيْسَّرُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٦-٣٧﴾ [هود: ٣٦-٣٧].

ولما أتم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ صنع السفينة، وظهرت علامات بدء العذاب بتفجير العيون من الأرض، ونزول الماء من السماء، أمر الله نوحًا بأن يحمل فيها من الأحياء والحيوانات زوجين اثنين: ذكرًا وأنثى، ليبقى ويستمر نسلها، كما أمره الله أن يحمل معه أهله، ما عدا من كفر منهم، وهم إحدى زوجاته وأحد أبنائه، كما أمر الله أيضًا أن يحمل معه المؤمنين به، وهم قليل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ﴾ (٤٠) ﴿وَقَالَ أَرْكَبْ أُنْهَارُهَا بِسْمِ اللَّهِ يَجْرُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ﴾ (٤١) وَهِيَ تَجْرَىٰ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأُوذِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣-٤٠﴾ [هود: ٤٣-٤٠].

ثم أخذت نوحًا عاطفة الشفقة على ولده، فطلب من ربه أن ينجيه من الهلاك: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۖ﴾ (٤٥) قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمُرَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦-٤٥﴾ [هود: ٤٦-٤٥].

ولما أهلك الله الكفار بالغرق أمر الله الأرض أن تبلع الماء، وأمر السماء أن تكف عن المطر، فاستوت السفينة راسية على جبل الجودي بالموصل، وقضي الأمر، وأهلك الظالمون: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ

وَيَسْمَاءُ أَقْلَبَى وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ [هود: ٤٤]. وبعد أن استوت السفينة على الجبل، أمر الله نوحًا أن ينزل ومن معه محفوظًا بالسلام والبركات: ﴿قِيلَ يُونُحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

وهكذا نصر الله نوحًا والمؤمنين معه، وأهلك من كفر به، وجعلهم عبرة للناس: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧]، ثم جعل الله في ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام النبوة والكتاب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِئْتُهُمْ مَهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] ^(١).

العبر والعظات المستفادة

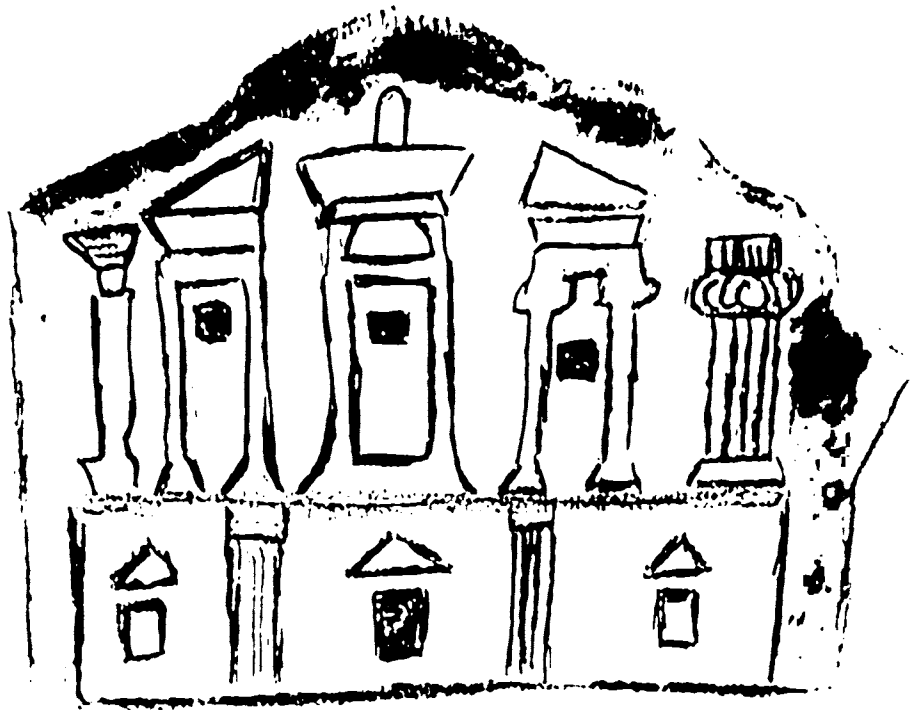
قصة نوح من أكثر القصص التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم، لأنها تحمل العديد من العبر والدروس، التي يستفاد منها، وبالأخص الداعون إلى الله، ففي قصصه عبر كثيرة وعظيمة جدًا، ومن تلك العبر والدروس المستفادة:

(١). أصول الدين الإسلامي: محمد بن إبراهيم التوحيدي، دار العاصمة، الرياض، =
= السعودية، النشرة الأولى ١٤١٤هـ (ص ٤٦-٤٨).

١. الحذر من الغلو في الصالحين بجهل وإصرار على المعصية.
٢. عدم اليأس والصبر على أداء التكليف، التي كلف الله بها في مواجهة الأعداء، والصبر على أذى السفهاء والجهلاء، وعلى صعاب الحياة كافة.
٣. الشجاعة في إبداء الرأي، والغيرة على الحق، والإصرار على الدعوة.
٤. أخوة الدين أعظم من علاقة النسب والقرابة، وكذلك الجاه والمال والسلطان، بل العبرة بداية ونهاية للعمل الصالح، وتصحيح العلاقة مع الخالق، وغير ذلك لا يجدي عند الله شيئاً.
٥. عظيم فضل الدعاء لرفع البلاء، والنجاة من العذاب.
٦. سنة الله في أهل الطغيان الزوال والبوار، وأن العدوان على الظالمين والعاقبة للمتقين المؤمنين.



قوم هود عَالَمُكُم (عاد)



نسبهم

كانوا عرباً يسكنون الأحقاف باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر. فهم من العرب البائدة^(١). وينتمي قوم عاد كما دلت المراجع إلى العرب العاربة، التي استعملت العربية وتحدثت بها، وكما تشير الروايات بأنهم انحدروا من ذرية رجل، يقال له عاد من سلالة سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَام، فقد سبق وجودهم وجود العرب المستعربة، التي انحدرت منها نسل نبي الله عَلَيْهِ السَّلَام إسماعيل.

موقعهم الجغرافي

ذكر ابن بطوطة: أن الأحقاف، وهي منازل عاد، وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر، وحوله قرية لصيادي السمك. وفي الزاوية: قبر مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعاً عليه مكتوب: هذا قبر هود بن عابر، والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف، لأنها بلاده، والله أعلم^(٢).

الأحقاف هي منازل عاد، قيل كانت بالشام، وقيل هي بلاد رمل بين مهرة وعدن، وقيل في بلاد الشحر الموصلة للبحر اليماني، وقيل هي

(١). محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ (٤٦٦/٩).

(٢). رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧ هـ (١٢٦/٢).

من حضرموت وعمان، والصحيح: أن بلاد عاد كانت باليمن، ولهم كانت إرم ذات العماد، والأحقاف جمع حقف^(١).

قال الأصمعي: الأحقاف هي الآن تلال من الرمل بين عدن وحضرموت، وكانت مساكن عاد أعمار بلاد الله، وأكثرها عمارة وزرعًا وشجرًا، فلما سلط الله تعالى عليهم الريح طمها بالرمل، وهي إلى الآن تحت تلك الأحقاف، جعلها الله تعالى عبرة للناظرين وخبرة للغابرين، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]. وبها قصران من قصور عاد^(٢).

صفاتهم

عاد قوم هود اشتهروا أنهم كانوا عتاة، أجسامهم كبيرة، أقوىاء متمردون، عبدة للأصنام. وقيل يبلغ طول أحدهم اثني عشر ذراعًا، وفي كتاب أبي حذيفة ستين ذراعًا، والله أعلم^(٣).

- (١). انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبدالله بن عبدالمعظم الحميري، ت: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، دار السراج، ط ٢، ١٩٨٠م (ص ١٤).
- (٢). آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت (ص ٦٦).
- (٣). البدء والتاريخ: المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر (٣٧/٣).

حياتهم

إن قوم هود، وهم عاد أصحاب أوثان، يعبدونها من دون الله، اتخذوا أصنامًا على مثال ود وسواع ويغوث ونسر، فاتخذوا صنمًا، يقال له: صمود، وصنمًا يقال له: الهبار، فبعث الله إليهم هودًا. فكان هود من قبيلة، يقال لها: الخلود، وكان من أوسطهم نسبًا، وأفضلهم موضعًا، وأشرفهم نفسًا، وأصبحهم وجهًا، وكان في مثل أجسامهم، أبيض جعدًا، بادي العنفقة، طويل اللحية، فدعاهم إلى الله، وأمرهم أن يوحدوا الله، ولا يجعلوا مع الله إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، لم يذكر أنه أمرهم بغير ذلك، ولم يدعهم إلى شريعة، ولا إلى صلاة، فأبوا ذلك وكذبوه.

وقد ردت قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ و(قومه عاد) في عدد من سور القرآن الكريم بأساليب مختلفة، وخلاصتها: أن عادًا الأولى هم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وأول أمة أهلكها الله تعالى بذنوبهم وشركهم بعد أمة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا يأتي ذكرهم في القرآن بعد ذكر قصة قوم نوح مباشرة في سور عدة من كتاب الله تعالى.

وكانت عاد قوم هود أقوياء، عبدة أصنام فأرسل الله تعالى إليهم أخاهم هودًا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ويرغبهم في طاعته واستغفاره، ويعددهم على ذلك بخيري الدنيا والآخرة... ويتوعددهم على مخالفته بالعقوبة في الدنيا والآخرة، فكذبوه وردوا عليه بما أجمله القرآن الكريم، وكان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ قد اعتزلهم في حظيرة هو ومن معه

من المؤمنين، فلم يصبهم من تلك الرياح إلا نسيم العليل الذي تلين به الجلود وتلذ به النفوس.

وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ: هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويقال: إن هودًا هو عابر بن شالخ بن سام بن نوح، ويقال: هود بن عبدالله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذكره ابن جرير^(١)، وكانوا عربًا يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر، يقال لها: الشحر، واسم واديهما مغيث، وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦-٧]، أي مثل القبيلة. وقيل: مثل العمد. والصحيح الأول، وفي صحيح ابن حبان، عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: «منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر»^(٢). ويقال: إن هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من تكلم بالعربية. وزعم وهب بن منبه: أن أباه أول من

(١). مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي فخر الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١٤٢٠، ٣هـ (٢٩٩/١٤)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، ت: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م (٢٤٥/٤).

(٢). أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٦٦/١-١٦٧)، وصححه ابن حبان في صحيحه (٧٦/٢-٧٧ رقم ٣٦١)، بينما ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٣٦/١) رقم ٢٦١.

تكلم بها. وقال غيره: أول من تكلم بها نوح. وقيل: آدم وهو الأشبه. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَام: العرب العاربة. وهم قبائل كثيرة منهم: عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وعييل، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم. وأما العرب المستعربة، فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وكان إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم، الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والمقصود: أن عادًا وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكان أصنامهم ثلاثة: صد، وصمود، وهرا. فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَام، فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف: ﴿وَالِإِلَٰهَ أَخَاهُم هُودًا قَالِ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالِ الْمَلَآئِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۚ إِنَّا لَنَرْنَكُمْ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكُمْ مِنَ الْكَذَّابِينَ ۖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۖ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢]

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود: ﴿وَالِإِلَٰهَ أَخَاهُم هُودًا قَالِ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْرُوتٌ ﴿٥٠﴾﴾

يَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَنَاكَ عَادٌ جَحَدُوا بِنَائِبَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٠﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٥٩-٦٠﴾ [هود: ٥٩-٦٠].

وقال تعالى في سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: ١] بعد قصة قوم نوح: ﴿فَرَأَيْنَاهُمْ بَعْدَ هَمٍّ قَرْنَا آخَرِينَ ﴿٢١﴾﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَيْنِ ﴿٤٠﴾﴾ فَلَاخَذَتْهُمْ نَصِيحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١-٤٢﴾ [المؤمنون ٣٩-٤١].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِنَائِبَتِنَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦-١٥﴾﴾، وقال تعالى في الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ مَا نَذِرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢]، وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿١٨﴾﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَانْتِهِمْ أَعْجَازًا نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿٢١﴾﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢-١٨﴾﴾، وقال في سورة الفجر: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴿١٨﴾﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ

﴿١٩﴾ تَنَزَّعُ النَّاسُ كَانْتَهُمُ اعْجَازًا تَحِلُّ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿[الفجر: ٦-١٤]﴾.

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، والعنكبوت، وفي سورة ص، وفي سورة ق، ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات، مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار. وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان. وذلك بين في قوله لهم: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش. وقال في المؤمنون: ﴿فَرَأَيْنَاهُمْ يَتَعَذَّبُونَ آيَاتِ رَبِّهِمْ أَنْ لَا يَأْتِيَهُمُ الْغَمَامُ وَلَا يَسْهُلُ﴾ [المؤمنون: ٣١]، وهم قوم هود على الصحيح. وزعم آخرون: أنهم ثمود. لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكُرُوا يَرْجِي صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]. وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم، كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة، فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات، ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود.

والمقصود: أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين، عتاة متمردين في عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله، وإلى إفراذه بالعبادة، والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلما أمرهم بعبادة الله، ورغبتهم في طاعته واستغفاره،

ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ أَمْلَأْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنَرَنكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، أي ليس الأمر كما تظنون، ولا ما تعتقدون ﴿أَتَبْلُغُكُمْ رَسُولَاتِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة، لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه، والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، لا يبتغي منهم أجراً، ولا يطلب منهم جعلاً، بل هو مخلص لله ﷻ في الدعوة إليه، والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه، وأمره إليه، ولهذا قال: ﴿يَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]، أي ما لكم عقل تميزون به، وتفهمون أنني أدعوكم إلى الحق المبين، الذي تشهد به فطركم التي خلقتهم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً، وأهلك من خالفه من الخلق، وما أنا أدعوكم إليه، ولا أسألكم أجراً عليه، بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع، ولهذا قال مؤمن يس: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٦١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢١-٢٢]. يقولون: ما جئنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به. وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته، ولا برهان نصبتة، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه، وعندنا إنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك،

فَأَصَابَكَ فِي عَقْلِكَ فَاعْتِرَاكَ جَنُونٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ، فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿هُود: ٥٤-٥٥﴾،

أنتم وهي جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه، وتقدروا عليه، ولا تؤخروني ساعة واحدة، ولا طرفة عين، فإنني لا أبا لي بكم، ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هُود: ٥٦)، أي أنا متوكل على الله ومتأيد به. وواثق بجنابه، الذي لا يضيع من لاذ به. واستند إليه، فلست أبا لي مخلوقاً سواه، ولست أتوكل إلا عليه، ولا أعبد إلا إياه، وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء، ولا نالوا منه مكروهاً، فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه، وفساد ما ذهبوا إليه، وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قبله في قوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِتَايِبٍ إِلَيْهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]. وهكذا قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَحَاجَّهٖ قَوْمُهُ قَالَ اتَّخَذْتُنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ

وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ
 مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٣]، استبعدوا أن يبعث
 الله رسولا بشرياً، وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً
 وحديثاً، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ
 أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ
 إِنَّكَ هَذَا سَاحِرٌ مُّثِينٌ ﴾ [يونس: ٢]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ
 يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ﴿٩١﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ
 فِي الْأَرْضِ مَلَكُوتَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ
 مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٥]، أي ليس هذا بعجيب، فإن الله
 أعلم حيث يجعل رسالته. وقوله: ﴿ أَيْعِدُكُمْ أَنُكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا
 أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا
 نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا
 نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿المؤمنون: ٣٥-٣٨﴾، أي يموت قوم ويحيا آخرون.
 وهذا هو اعتقاد الدهرية، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام
 تدفع، وأرض تبلع.

وهذا كله كذب، وكفر وجهل وضلال، وأقوال باطلة، وخيال فاسد
 بلا برهان، ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم، الذين لا
 يعقلون ولا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَصْعَثُ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٣].
 وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَخْدَوْنَ
 مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩]، يقول لهم: أتبنون بكل

مكان مرتفع بناءً عظيمًا هائلًا كالقصور، ونحوها تعبثون ببنائها، لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام، كما قال تعالى: ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿الفجر: ٦-٨﴾، فعاد إرم هم عاد الأولى، الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة، وهي تتنقل في البلاد فقد غلط وأخطأ. وقال ما لا دليل عليه. وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾، قيل: هي القصور. وقيل: بروج الحمام. وقيل: مأخذ الماء. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]، أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعمارًا طويلة ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عِوَانِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٠-١٣٥]، وقالوا له فيما قالوا: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، أي أجئتنا لنعبد الله وحده، ونخالف آباءنا وأسلافنا، وما كانوا عليه، فإن كنت صادقًا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال، فإننا لا نؤمن بك، ولا نتبعك ولا نصدقك، كما قالوا: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦-١٣٨]، أما على قراءة فتح الخاء فالمراد به اختلاق الأولين، أي أن هذا الذي جئت به إلا اختلاق منك، وأخذته من كتب الأولين، هكذا فسر غير واحد من الصحابة والتابعين، وأما

على قراءة ضم الخاء واللام فالمراد به الدين، أي إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من أسلافنا، ولن نتحول عنه ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به. ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]. قال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصِبْتُ أَنْتَجِدَلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنظِّرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]، أي قد استحققتكم بهذه المقالة الرجس، والغضب من الله، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها، وسميتوها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وأبأؤكم ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، أي لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً، وإذا أبيتم قبول الحق، وتماديتم في الباطل، وسواء عليكم أنهيتمكم عما أنتم فيه أم لا، فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم، وبأسه الذي لا يرد، ونكاله الذي لا يصد. وقال تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ۝١٠ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩-٤١]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتْلُوَ عَلَيْكُمْ مَا أَرْسَلَتْ بِهِ وَلَكِنِّي آرَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٣ قَالُوا إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٤ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢-٢٥]، وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية، كما تقدم مجملاً ومفصلاً، كقوله: ﴿فَأَجْحَتُهُ وَالَّذِينَ

مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿الأعراف: ٧٢﴾، وكقوله: ﴿وَلَا تَعْبُرُوا أَمْرَكُلَّ جَبَارٍ عِندِي ۝٥٩﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝٦٠﴾ إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۝٦١﴾ الْأَبْعَادُ قَوْمٌ هُوَ ﴿هود: ٥٨-٦٠﴾، وكقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿المؤمنون: ٤١﴾. وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۝٤٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: ١٣٩-١٤٠﴾.

وأما تفصيل إهلاكهم: فلما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌّ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ۝٢٣﴾ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿الأحقاف: ٢٤﴾، كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحليين مستئين فطلبوا السقيا، فأرأوا عارضا في السماء، وظنوه سقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ۝٢٣﴾ ﴿الأحقاف: ٢٤﴾، أي من وقوع العذاب. وهو قولهم: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُسْأِلَ الْهَيْئَةَ فَأَنبَأَنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ الصَّادِقِينَ ﴿الأحقاف: ٢٢﴾، ومثلها في الأعراف.

وقد ذكر المفسرون وغيرهم ها هنا الخبر. الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق قال: فلما أبوا إلا الكفر بالله ﷻ، أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك. قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرج منه، إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته. وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً

يقال له معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد، واسمها: جلهدة ابنة الخيبري. قال: فبعث عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلًا، ليستقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر، تغنيهم الجرادتان قيتان لمعاوية، وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعرًا يعرض لهم بالانصراف، وأمر القيتتين أن تغنيهم به، فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل الله يصبحنا غماما
 فيسقي أرض عاد إن عادا قد أمسوا لا يبينون الكلاما
 من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
 وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عياما
 وإن الوحش يأتيهم جهارا ولا يخشى لعادي سهامها
 وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
 فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم، وهو قيل بن عتر، فأنشأ الله سحابات ثلاثًا: بيضاء، وحمراء، وسوداء. ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب. فقال: اخترت السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء. فناداه مناد: اخترت رمادًا رمددًا، لا تبقي من عاد أحدًا،

لا والدًا تترك ولا ولدًا، إلا جعلته همدًا، إلا بني اللوذية المهدا. قال: وهو بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة، فلم يصيبهم ما أصاب قومهم. قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة. قال: وساق الله السحابة السوداء التي اختارها. قيل بن عتر بما فيها من النعمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد، يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا. فيقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤﴾ تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴿[الأحقاف: ٢٤-٢٥]، أي كل شيء أمرت به فكان أول من أبصر ما فيها، وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد، يقال لها: مهد، فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صعقت، فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مهد؟ قالت: رأيت ريحًا فيها كشهد النار، أماها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَفَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا بِخَلْقِ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]. والحسوم: الدائمة. فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك. قال: واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود، وتلتذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة، وذكر تمام القصة.

وقد روى الإمام أحمد حديثًا في مسنده يشبه هذه القصة، عن الحارث وهو ابن حسان، ويقال: ابن يزيد البكري. قال: «خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي رسول الله ﷺ، فمررت بالربذة، فإذا عجوز

من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغني إليه؟

قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وبلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا، قال: فجلست، قال: فدخل منزله أو قال: رحله، فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: هل كان بينكم وبين بني تميم شيء؟ فقلت: نعم. قال: وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزًا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفرت، وقالت: يا رسول الله فإلى أين تضطر مضرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: معزى حملت حتفها. حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا، أعود بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد، قال: هيه وما وافد عاد؟ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عادًا قحطوا، فبعثوا وفدًا لهم يقال له: قيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان، يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجد مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه، فمرت به سحبات سود، فنودي منها: اختر. فأومأ إلى سحابة منها سوداء. فنودي منها: خذها رماذًا رمدًا لا تبقي من عاد أحدًا. قال: فما بلغني أنه بعث عليهم

من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي، هذا من الريح حتى هلكوا. قال أبو وائل: وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وفداً لهم، قالوا: لا تكن كوافد عاد^(١). وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب به^(٢). ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم ابن بهدلة، ومن طريقه رواه ابن ماجه. وهكذا أورد هذا الحديث، وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير، وغيره.

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة، فإن فيما ذكره ابن إسحاق، وغيره ذكراً لمكة، ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل، حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم عندهم، كما سيأتي، وعاد الأولى قبل الخليل، وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى، لا يشبه كلام المتقدمين. وفيه: أن في تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر. وقد قال ابن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة، والعاتية الشديدة الهبوب ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، أي كوامل متتابعات. قيل: كان أولها الجمعة. وقيل: الأربعاء. ﴿فَنَزَلْنَا الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ النَّخْلِ خَاوِيَةً﴾ [الحاقة: ٧]. شبههم بأعجاز النخل التي لا رءوس لها، وذلك لأن الريح

(١). أخرجه أحمد (٣٠٦/٢٥-٣٠٨ رقم ١٥٩٥٤)، وحسنه محققو المسند.

(٢). أخرجه الترمذي (٣٩٢/٥ رقم ٣٢٧٤)، وحسنه الألباني.

كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه، فيبقى جثة بلا رأس، كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]، أي في يوم نحس عليهم، مستمر عذابه عليهم، ﴿تَزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، ومن قال: إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء. وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن، فإنه قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [نصلت: ١٦]. ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشثومة. وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد في أيام نحسات، أي عليهم. وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، أي التي لا تنتج خيراً، فإن الريح المفردة لا تنثر سحاباً، ولا تلقح شجراً، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها، ولهذا قال: ﴿مَا نَذِرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية. وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله صلوات الله عليه وسلم أنه قال: «نصرت بالصبا، وأهلك عَادَ بالدبور»^(١). وأما قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ أَعَادٍ إِذْ أَنْذَرْتُهُمْ، بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]. فالظاهر

(١). أخرجه البخاري (٣٣/٢) رقم (١٠٣٥)، ومسلم (٦١٧/٢) رقم (٩٠٠).

أن عادًا هذه هي عاد الأولى، فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود، وهم الأولى. ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية. ويدل عليه ما ذكرنا، وما سيأتي من الحديث عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فإن عادًا لما رأوا هذا العارض، وهو الناشئ في الجو كالسحاب، ظنوه سحاب مطر فإذا هو سحاب عذاب، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة، رجوا فيه الخير، فنالوا منه غاية الشر. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾، أي من العذاب، ثم فسره بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]. يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبع ليال بآيامها الثمانية، فلم تبق منهم أحدًا، بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيان، فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم، وتدمر عليهم البيوت المحكمة، والقصور المشيدة، فكما منوا بقوتهم وشدتهم، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، سلط الله الذي هو أشد منهم قوة عليهم ما هو أشد منهم قوة، وأقدر عليهم، وهو الريح العقيم. ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة، ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم، وغيث لمن بقي منهم، فأرسلها الله عليهم شرًا وناارًا، كما ذكره غير واحد. ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين، وجمع لهم بين الريح الباردة، وعذاب النار، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]. والله أعلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم، ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح، وما فيها **﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ﴾** **[الأحقاف: ٢٤]**. فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة»^(١).
وقد رواه الطبراني، عن عبدان بن أحمد، عن إسماعيل بن زكريا الكوفي، عن أبي مالك، عن مسلم الملائي، عن مجاهد، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس -كذا قال-: قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم فحملتهم البدو إلى الحضر، فلما رآها أهل الحضر **﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ﴾** مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها فألقي أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا»^(٢). قال: عنت على خزائنها، حتى خرجت من خلال الأبواب. قلت: وقال غيره: خرجت بغير حساب.

وظاهر الآية: أنهم رأوا عارضا، والمفهوم منه لغة السحاب. كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري، إن جعلناه مفسرا لهذه القصة، وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا عصفت الريح، قال: «اللهم

(١). أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢١/١٢) رقم (١٣٥٥٣)، وأبو الشيخ في كتاب العظمة (١٣٠٨/٤)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤١٠/٩).
(٢). أخرجه الطبراني في الكبير (٤٢/١٢) رقم (١٢٤١٦)، وأبو الشيخ في كتاب العظمة (١٣٠٩/٤).

إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به. وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]»^(١). وعن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا قط، حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، وقالت: كان إذا رأى غيمًا أو ريحًا، عُرِفَ ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا؛ رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذّب قوم نوح بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض ممطرنا»^(٢). وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأخرجه البخاري^(٣)، وأبو داود من حديث ابن وهب^(٤). فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين، كما أشرنا إليه أولاً. فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبرًا عن قوم عاد الثانية، وتكون بقية السياقات في القرآن خبرًا عن عاد الأولى، والله أعلم بالصواب.

(١). أخرجه مسلم (٦١٦/٢) رقم (٨٩٩).

(٢). أخرجه أحمد (٤٣٢/٤٠ - ٤٣٣) رقم (٤٢٣٦٩).

(٣). أخرجه البخاري (١٣٣/٦) رقم (٤٨٢٩).

(٤). أخرجه أبو داود (٣٢٦/٤) رقم (٥٠٩٨).

وقد منا حج هود عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ذكر حج نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ في بلاد اليمن. وذكر آخرون أنه بدمشق، وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، والله أعلم^(١).

العبر والعظات المستفادة

قوم عاد وقصتهم مع سيدنا هود بها من العبر والعظات التي ينتفع بها حتى نتجنب الوقوع فيها دون الانتباه لذلك:

١. التقدم العمراني والصناعي والعسكري لا ينفع أصحابه ما لم يكن على منهج الله ورضاه.
٢. التباهي والتفاخر والغرور بالقوة، والانحراف عن صراط الله المستقيم عاقبته إلى سوء.
٣. المداومة على ذكر الله، وأداء حقّه وشكره على نعمه.
٤. نعم الله كالرياح والأمطار جند الله، قد تتحول إلى عذاب بالمعاصي.

(١). البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق، (١/٢٨٢-٣٠٣).

٥. تأكيد طريق هلاك الأمم الكافرة واحد، يبدأ من الكفر بالله ثم الاغترار بالقوة المادية بعد ذلك محاربة الدين للانتهاء بنزول العذاب والهلاك.

٦. الدعاة إلى الله عليهم التحلي بالإيمان، والتسلح بالصبر، والإخلاص في الدعوه بكلّ ثبات وعزيمة، واستعمال الأسلوب الأمثل لإيصال الرّسالة.



قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَام
(ثمود، أصحاب الحجر المرسلين)



نسبهم

ينسبون إلى ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وهم قبيلة مشهورة، يقال: ثمود باسم جدّهم ثمود أخي جدّيس، وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عربًا من العاربة. كما قيل: إن ولد آرم بن سام عوض وعابر وحويل، فولد عوض عابر وعاد وعييل، وولد عابر بن آرم ثمود وجدّيس، وكانوا عربًا يتكلمون بهذا اللسان المصري، وكانت العرب تقول لهذه الأمم، ولجرهم العرب العاربة^(١).

موقعهم الجغرافي

كان يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وموقعهم بالتحديد شمال شرق المدينة المنورة، تسمى الآن مدائن صالح، وهي داخل المملكة العربية السعودية، كما قيل: إنهم بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى^(٢).

صفاتهم

كانوا ذوي قدرة جسمانية هائلة، فحفروا البيوت في الجبال، وبنوا القصور فيها.

(١). الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، ت: عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٥ هـ، ط ٢، (٦٢/١)، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني: أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية (٤٥/٢٠).

(٢). البداية والنهاية: لابن كثير، مرجع سابق، (٢٨٢/١)، والكامل، لابن الأثير، مرجع سابق (٦٢/١).

حياتهم

صالح نبي ثمود عليه الصلاة والسلام، وقصته مع قومه والمعجزة التي أيده الله بها. وهم قبيلة مشهورة، يقال: ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عرباً من العاربة، يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مر به رسول الله ﷺ، وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين، وكانوا بعد قوم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك، فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو عبدالله ورسوله صالح بن عبد بن ماسخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد، ولا يشركوا به شيئاً، فأمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهما وقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسِوْا فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّصَدِيقَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْفَهَا أَلَا

إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ لَثَمُودَ ﴿٦٨﴾ [هود: ٦٨-٦٩]. وقال ﷺ في سورة سبْحَانَ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاثِنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨]. وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّذْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا ابْشِرِ امْرَأَتًا وَجِدًّا نَنبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

وكثيرًا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود، كما في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، وسورة ص، وسورة ق، والنجم، والفجر. ويقال: إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ

رُسِّلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٨-٩﴾ [إبراهيم: ٨-٩]، الآية. الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيّداً، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

والمقصود الآن: ذكر قصتهم، وما كان من أمرهم، وكيف نجى الله نبيه صالحاً عَلَيْهِ السَّلَام ومن آمن به. وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم، ومخالفتهم رسولهم عَلَيْهِ السَّلَام، قد قدمنا أنهم كانوا عرباً، وكانوا بعد عاد، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم؛ ولهذا قال لهم نبيهم عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَالْأَنْبِيَاءُ كَانُوا أَنْتَهُمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولما جاءهم صالحاً عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ مَا يَحْكُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْجِدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤]. أي إنما جعلكم خلفاء من بعدهم، لتعتبروا بما كان من أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم، وأباح لكم هذه الأرض تبون في سهولها القصور، ﴿وَتَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح، والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته، والعدول عن طاعته، فإن عاقبة ذلك وخيمة؛ ولهذا وعظهم بقوله: ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُمْ بِأَمِينٍ﴾ [الأنبياء: ١٦] في

جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿الشعراء: ١٤٦-١٤٨﴾،
 أي متراكم كثير حسن بهي ناضج ﴿وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتًا فَرِهِينَ
 ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٠﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿الشعراء: ١٤٩-١٥٢﴾. وقال لهم أيضاً: ﴿وَالِئِنْ تَمُودُ
 أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ
 وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿هود: ٦١﴾، أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض،
 وجعلكم عمارها. أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو
 الخالق الرزاق، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا سواه، فاستغفروه،
 ثم توبوا إليه. أي أقلعوا عما أنتم فيه، وأقبلوا على عبادته، فإنه يقبل
 منكم، ويتجاوز عنكم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا
 مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴿هود: ٦١-٦٢﴾، أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً
 قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وترك ما
 كنا نعبد من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد؛ ولهذا قالوا:
 ﴿أَنَّهُمْ نَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ
 يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَهَلْ يُنَصِّرُنِي
 مِنْ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ هُمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿هود: ٦٢-٦٣﴾. وهذا تطف

منه لهم في العبارة، ولين الجانب، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى
 الخير. أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم، وأدعوكم إليه؟ ماذا
 عذرکم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه؟ وأنتم تطلبون مني أن أترك
 دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكنني هذا؛ لأنه واجب عليّ، ولو تركته
 لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه، ولا ينصرنني، فأنا لا

أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم، وقالوا له أيضاً: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥]، أي من المسحورين. يعنون مسحورًا، لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. وهذا القول عليه الجمهور: أن المراد بالمسحورين المسحورون. وقيل: من المسحورين. أي ممن له سحر، وهي الرثة، كأنهم يقولون: إنما أنت بشر له سحر. والأول أظهر لقولهم بعد هذا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، وقولهم: ﴿فَأْتِ بِتَايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ ١٥٥ ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦]. وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا ثَمُودَ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ لَقَدْ أَتَوْنِي وَشَاءُوا عَلَافًا ذَرُوا ذُرَاهِمَ آلِهَتِهِمْ تَارَةً فَذَرُونَهَا لِيُفِضَ عَلَيْهَا رَبُّكَ يُدْرِكَ مَا عَصَاكُمْ فَيُعَذِّبَهُمْ وَيَهْدِيَهُمْ لِسَبِيلٍ ذُرَاهِمَ اللَّهِ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقد ذكر المفسرون: أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديتهم، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة هناك- ناقة، من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافاً، سموها ونعتوها وتعتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا. فقال لهم النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَام: أرأيتم إن أجبتمكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به، وتصدقوني فيما أرسلت به؟

قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه، فصلى لله ﷻ ما قدر له، ثم دعا ربه ﷻ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله ﷻ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة كوماء عشاء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، وعلى الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً، فأمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣]، أي جحدوا بها، ولم يتبعوا الحق بسببها. أي أكثرهم، وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو بن مخللة بن ليبد بن جواس، وكان من رؤسائهم، وهم بقية الأشراف بالإسلام، فصدّهم ذؤاب بن عمر بن ليبد، والحجاب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلّس، ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة، وكان من أشرافهم، فهم بالإسلام، فنهاء أولئك فمال إليهم. فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له: مهرش بن غنمة بن الدميل رَحِمَهُ اللهُ شِعْراً:

وكانت عصبة من آل عمرو إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعا فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزا وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر تولوا بعد رشدهم ذئابا

ولهذا قال لهم صالح ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، أضافها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إضافة تشریف وتعظيم، كقوله:

بيت الله، وعبد الله. ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾، أي دليلاً على صدق ما جئتم به ﴿وَيَقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]. فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم؛ ولهذا قال: ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]، أي اختباراً لهم، أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم. بما يفعلون: رثيّر، أي انتظر ما يكون من أمرهم، واصطبر على أذاهم، فسيأتيك الخبر على جلية ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحْضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]. فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة، ليستريحوا منها، ويتوفر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آثِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف ابن جندع، وكان أحمر أزرق قصيراً، وكان يقال: إنه ولد زانية، ولد على فراش سالف. وهو من رجل يقال له: صيبان، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم؛ فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم.

وذكر ابن جرير، وغيره من علماء المفسرين: أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما صدوف بنت المحيا بن زهير بن المحيا، وكانت ذات

حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم، ففارقتة فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، واسم الأخرى عنيزة بنت غنيم ابن مجلز، وتكنى أم عثمان، وكانت عجوزاً كافرة، لها بنات من زوجها ذؤاب ابن عمرو أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة، فله أي بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها، وسعوا في قومهم بذلك، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]. وسعوا في بقية القبيلة، وحسنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك، وطاعوهم في ذلك، فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها، كمن لها مصدع، فرماها بسهم، فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء نساء القبيلة في قتلها، وحسرن عن وجوههن، ترغيباً لهم، فابتدروهم قدار بن سالف، فشد عليها بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغبة واحدة عظيمة، تحذر ولدها، ثم طعن في لبتها فنحرها، وانطلق سقبها، وهو فصيلها فصعد جبلاً منيعاً، ورغا ثلاثاً.

وروى عبدالرزاق، عن معمر عن سمع الحسن أنه قال: يا رب أين أمي؟ ثم دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه أيضاً^(١)،

(١). أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٨٢/٢) رقم (٩١٢)، والطبري في تفسيره (١٢/٥٣٦) رقم (١٤٨١٢).

قال الله تعالى: ﴿فَادَا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (٢٩) ﴿كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ [القمر: ٢٩-٣٠]، وقال تعالى: ﴿﴾ [الشمس: ١٢-١٣]، أي احذروها ﴿﴾ [الشمس: ١٤-١٥]. وعن عبدالله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقَقَهَا﴾ (١٢) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا﴾ [الشمس: ١٢]، انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة»^(١). عارم أي شهم عزيز، أي رئيس منيع، أي مطاع في قومه.

وعن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟». قال: بلى. قال: «رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا -يعني قرنه- حتى تبتل منه هذه»^(٢)، يعني لحيته. رواه ابن أبي حاتم. وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا عَدَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه؛ منها أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة، التي جعلها الله لهم آية، ومنها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم، فاستحقوه من وجهين؛ أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿وَيَقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا

(١). أخرجه البخاري (١٦٩/٦ رقم ٤٩٤٢)، ومسلم (٢١٩١/٤ رقم ٢٨٥٥).

(٢). أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٣٨/١٠ رقم ١٩٣٥٢)، والواحي في تفسيره

(٤٩٩/٤ رقم ١٣٦٦)، وأحد في المسند (٢٥٦/٣٠-٢٥٧ رقم ١٨٣٢١)، وفي فضائل

الصحابة (٦٨٢/٢ رقم ١١٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٥٨٩).

تَمَسُّوْهَا سِوًى فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ [هود: ٦٤]، وفي آية ثر عظيمث، وفي الأخرى ثر أليمث. والكل حق. والثاني: استعجالهم على ذلك. ومنها أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علمًا جازمًا، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق، ووقوع العذاب بهم. قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]. وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف لعنه الله، فعرقها فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيا فهم يقطعونها، فلما عاين ذلك سبقها، وهو ولدها شرد عنهم، فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مرات؛ فلهذا قال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]. أي غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضًا في هذا الوعد الأكيد، بل لما أمسوا هموا بقتله، وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]، أي لنكبسه في داره مع أهله فلنقتلنه، ثم نجحدن قتله، وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه؛ ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٥٠ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥١ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنِّي فِي ذَلِكَ لِآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ٥٢ ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٣]. وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضحتهم

سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوههم مصفرة، كما أنذرهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل، ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل، ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع، وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل، فلما كان صبيحة يوم الأحد، تحنطوا وتأهبوا، وقعدوا ينظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب، فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] جثثاً لا أرواح فيها، ولا حراك بها، قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة، واسمها: كلبة بنت السلق، ويقال لها: الزريعة. وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حيّاً من العرب، فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، واستسقتهم ماء، فلما شربت ماتت. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، أي لم يقيموا فيها في سعة، ورزق، وغناء. ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْآلِ إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ لَثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]، أي نادى عليهم لسان القدر بهذا. وعن جابر

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لما مر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح، فكانت يعني الناقة ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم ففعلوها، وكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا، ففعلوها، فأخذتهم صيحة أهدم الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»^(١). وهذا الحديث على شرط مسلم، وليس هو في شيء من الكتب الستة، والله أعلم.

ومر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبر أبي رغال، فقال: «أتدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمَنَعَهُ حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن ها هنا، ودفن معه غصن من ذهب. فنزل القوم فابتدروه بأسيا ففهم فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن»^(٢). وقال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف^(٣). هذا مرسل من هذا الوجه. وقد جاء من وجه آخر

(١). أخرجه أحمد (٦٦/٢٢ رقم ١٤١٦٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٤/٩) رقم ٣٧٥٥، وعبدالرزاق في تفسيره (٨٣/٢ رقم ٩١٥)، والطبري في تفسيره (٥٣٧/١٢ رقم ١٤٨١٣)، وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٣٨٠/٦-٣٨١)، فقال: وروى أحمد والحاكم بإسناد حسن عن جابر. وذكر الحديث. وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٦٥/٧): إسناده صحيح، ولم يخرجوه. بينما ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣١٨/٩ رقم ٤٣٣٤).

(٢). أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٨٤/٢ رقم ٩١٦)، والطبري في تفسيره (٥٣٨/١٢).
(٣). أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٨٤/٢ رقم ٩١٧)، والطبري في تفسيره (٥٣٨/١٢) =

متصلاً، وجاء عن عبد الله بن عمرو أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: «إن هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقرة، التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه. فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ [الأعراف: ٧٩]. إخبار عن صالح عليه السلام أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم: ﴿يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾، أي لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة، ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب عليّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد. وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال، وقف عليهم، وقد

= رقم (١٤٨١).

(١). أخرجه أبو داود (٣/١٨١ رقم ٣٠٨٨)، وقال الحافظ أبو الحجاج المزي: هذا حديث حسن عزيز. بينها ضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٢/٤٦٦ رقم ٥٥٥).

ركب راحلته، وأمر بالرحيل من آخر الليل، فقال: «يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» (١)، وقال لهم فيما قال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنيكم كذبتومني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنيكم». فقال له عمر: يا رسول الله تخاطب أقواما قد جيفوا. فقال: «والذي نفسي بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون» (١). ويقال: إن صالحاً عليه السلام انتقل إلى حرم الله، فأقام به حتى مات.

وعن ابن عباس قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر أي واد هذا؟»، قال: وادي عسفان. قال: «لقد مر به هود، وصالح عليهما السلام على بكرات حمر خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون يحجون البيت العتيق» (٢)، إسناده حسن.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، ففعلوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول

-
- (١). أخرجه أحمد (٣١٣/١-٣١٤) رقم (١٨٢)، وأبو يعلى (٤٣٣/٦) رقم (٣٨٠٨)، وصححه ابن حبان (٤٥٨/١٤-٤٥٩) رقم (٦٥٢٥)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله رجال الشيخين غير يحيى بن أيوب، فمن رجال مسلم. وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٢٤٩/٩) رقم (٦٤٩١).
- (٢). أخرجه أحمد (٤٩٥/٣) رقم (٢٠٦٧)، والضياء في الأحاديث المختارة (٣٩٧/١١) رقم (٤١٤).

الله فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»^(١). وعن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٢). أخرجاه في الصحيحين من غير وجه. وفي بعض الروايات أنه عَلَيْهِ السَّلَام لما مر بمنازلهم قنع رأسه، وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم «إلا أن تكونوا باكين»، وفي رواية: «فإن لم تبكوا فتباكوا، خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٣)، صلوات الله وسلامه عليه. ولما كان في غزوة تبوك، فسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنادى في الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ممسك بغيره، وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟» فناداه رجل: نعجب منهم يا رسول الله. قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعاب بعذابكم

(١). أخرجه أحمد (١٠/١٩١-١٩٢ رقم ٥٩٨٤)، قال محققو المسند: صحيح على شرط الشيخين.

(٢). أخرجه البخاري (٦/٨١ رقم ٤٧٠٢)، ومسلم (٤/٢٢٨٥ رقم ٢٩٨٠).

(٣). أخرجه البخاري (٦/٧ رقم ٤٤١٩)، ومسلم (٤/٢٢٨٦ رقم ٢٩٨٠).

شيئًا، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم بشيء»^(١). إسناده حسن، ولم يخرجوه.

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة، فكانوا يبنون البيوت من المدر فتخرب قبل موت الواحد منهم، فاحتوا لهم بيوتًا في الجبال، وذكروا أن صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سأله آية، فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها، وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء، وأخبرهم أنهم سيعقرونها، ويكون سبب هلاكهم ذلك، وذكر لهم صفة عاقرها، وأنه أحمر أزرق أصهب، فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولودًا بهذه الصفة يقتلنه، فكانوا على ذلك دهرًا طويلًا، وانقرض جيل وأتى جيل آخر، فلما كان في بعض الأعصار خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرياسة، فزوجه فولد بينهما عاقر الناقة، وهو قدار بن سالف، فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبيه وجديه فيهم، فنشأ نشأة سريعة فكان يشب في الجمعة، كما يشب غيره في شهر، حتى كان من أمره أن خرج مطاعًا فيهم رئيسًا بينهم، فسولت له نفسه عقر الناقة، واتبعه على ذلك ثمانية من أشrafهم، وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة، وبلغ ذلك صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ جاءهم باكيًا عليها، فتلقوه يعتذرون إليه، ويقولون: إن هذا لم يقع عن ملأ منا، وإنما

(١). أخرجه أحمد (٥٥٨/٢٩-٥٥٩ رقم ١٨٠٢٩)، وابن أبي شيبة (٤٢٥/٧ رقم ٣٧٠١٢)، والطبراني في الكبير (٣٤٠/٢٢ رقم ٨٥١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٠/١٠-٢٩١ رقم ١٨٠٩٦): رواه الطبراني، وأحمد بأسانيد، وأحدها حسن.

فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا، فيقال: إنه أمرهم باستدراك سبقها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها، فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك، فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه، ثم استقبل صالحاً عليه السلام، ورغا ثلاثاً، فعندها قال صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وأخبرهم أنهم يصبحون من غدهم صفراً، ثم تحمر وجوههم في الثاني، وفي اليوم الثالث تسود وجوههم، فلما كان في اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأحمدتهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين، والله سبحانه أعلم بالصواب، وهو حسبنا ونعم الوكيل^(١).

العبر والعظات المستفادة

تعلمنا قصة قوم النبي صالح عليه السلام عدم التكبر على الله سبحانه وتعالى وآياته، وإذا حدث ذلك سيكون مصيرنا حتماً الهلاك والعذاب، كما تعلمنا أيضاً أن العقلاء من الناس يعتبرون بآثار الظالمين، وكيفية البعد بأنفسهم عن أن يسلكوا مسالكهم، أو أن يسكنوا مساكنهم؛ خوفاً أن يصيبهم ما أصابهم.

الاستفادة المستخلصة من قصة القوم:

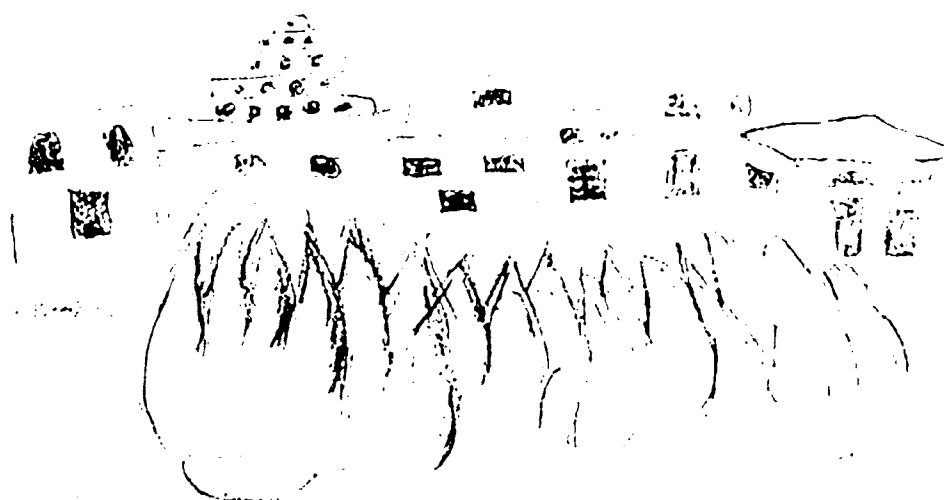
١. الإيمان الكامل والإخلاص في الدعوة، دون يأس أو ملل، يساعد على تبليغ الرسالة على الوجه الأكمل.

(١). البداية والنهاية: ابن كثير، مرجع سابق (٣٠٤/١-٣٢٣)، وانظر: فتح الباري، مرجع سابق (٣٧٩/٦-٣٨١).

٢. النعم التي يُنعم الله بها على عباده، إذا لم يُحسِّن العباد تسخيرها في طاعة الله، فإنها تنقلب عليهم نقمًا.
٣. عاقبة المكذبين بالهلاك والدمار، وهي سنة الله في خلقه.
٤. عاقبة المؤمنين النجاة والتأييد من الله رب العالمين؛ وذلك ببركة تقواهم، وخوفهم من عذاب خالقهم، واتباعهم للحق الذي جاءهم به.



إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ
وقومه وما جرى معهم



نسبهم

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. هذا نص أهل الكتاب في كتابهم.

وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يكنى أبا الضيفان. قالوا: ولما كان عمر تارخ خمسًا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وناحور، وهاران، وولد لهاران لوط. وعندهم أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الأوسط، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل. وهذا هو الصحيح صفاتهم:

كانوا يعبدون الكواكب السبعة، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال؛ ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعيادًا وقرابين. وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارًا سوى إبراهيم الخليل، وامراته، وابن أخيه لوط عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

موقعهم

المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر. والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام؛ لأنه صلى فيه إذ جاء معينًا للوط عَلَيْهِ السَّلَامُ. قالوا: فتزوج إبراهيم سارة، وكانت سارة عاقرة لا تلد. قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم، وامراته سارة،

وابن أخيه لوط بن هاران، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حران، فمات فيها تارخ وله مئتان وخمسون سنة. وهذا يدل على أنه لم يولد بحران، وإنما مولده بأرض الكلدانيين، وهي أرض بابل وما والاها. ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران، وهي أرض الكشدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضًا.

حياتهم

كان الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي أزال الله به الشرور، وأبطل به الضلال. فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آتَاهُ رَشْدَهُ فِي صَغَرِهِ، وَابْتَعَثَهُ رَسُولًا، وَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا فِي كِبَرِهِ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]. أي كان أهلاً لذلك. وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُضُوا ذُرَارِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧].

ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه، وكان أول دعوته لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَاكَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ إلى قوله تعالى:

﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۖ وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

يذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاوراة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بالطف عبارة وأحسن إشارة، بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام، التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، كيف تغني عنه شيئاً، أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر؟

ثم قال منبهاً على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع، وإن كان أصغر سناً من أبيه: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، أي مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً، يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك، فلما عرض هذا الرشد عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه، ولا أخذها عنه، بل تهدده وتوعده ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَمِي يَتَّبِعْنِي لِيْن لَمْ تَنْتَه لَأَرْجَمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]. قيل: بالمقال. وقيل: بالفعال. ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي واقطعني، وأطل هجراني. فعندها قال له إبراهيم: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، أي لا يصلحك مني مكروه، ولا ينالك مني أذى، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده خيراً، فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. قال ابن عباس وغيره: أي لطيفاً. يعني في أن هدايني لعبادته والإخلاص له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]. وقد استغفر له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، كما وعده في أذعته، فلما تبين له أنه

عدو لله تبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يلقى إبراهيم أباه أزر يوم القيامة، وعلى وجه أزر قتره وغبرة. فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني. فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد. فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجلك، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»^(١). هكذا رواه في قصة إبراهيم منفردًا.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْنَمًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]. هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم أزر. وجمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارح. وأهل الكتاب يقولون: تارح بالخاء المعجمة. فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبد اسمُه أزر.

وقال ابن جرير: والصواب أن اسمه أزر، ولعل له اسمان علما أن أحدهما لقب، والآخر علم، وهذا الذي قاله محتمل، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي

(١). أخرجه البخاري (١٣٩/٤) رقم (٣٣٥٠).

فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٨٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٥﴾ [الأنعام: ٧٥-٨٣]. وهذا المقام مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه

الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله ﷻ؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هو، ولا رب سواه، فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب - قيل: هو الزهرة - لذلك ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسننها، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً،

فبين أنها مسخرة مسيرة مقدره مربوبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، ولهذا

قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: ٧٨]، أي طالعة ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٠﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٨٠]، أي لست أبالي في

هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، فإنها لا تنفع شيئاً، ولا تسمع

ولا تعقل، بل هي مربوبة مسخرة: كالكوكب ونحوها، أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر: أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران، فإنهم كان يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً، كما ذكره ابن إسحاق وغيره، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق، وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتها، وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَافِظُونَ ﴿إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٦) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٠].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لَّإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٨٣-٩٨].

يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان، وحرقها عندهم، وصغرها، وتنقصها، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿[الأنبياء: ٥٢]﴾، أي معتكفون عندها وخاضعون لها ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤]، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكَاةً إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧]، قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره. وقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤]، سلموا له أنها لا تسمع داعيًا، ولا تنفع ولا تضر شيئًا، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم، ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجاهل؛ ولهذا قال لهم: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام؛ لأنه تبرأ منها، وتنقص بها، فلو كانت تضر لضرته، أو تؤثر لأثرته فيه ﴿قَالُوا أَاجْتَنَّا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، يقولون: هذا الكلام الذي تقوله لنا، وتنقص به آلهتنا، وتطعن بسببه في آبائنا، تقوله محققًا جادًا فيه أم لاعبًا، قال: ﴿قَالَ بَلْ رَزَقَكُمُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، يعني: بل أقول لكم ذلك جادًا محققًا، وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ربكم، ورب كل شيء، فاطر السماوات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق، فهو المستحق للعبادة وحده لا

شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين. وقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِيرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، أقسم ليكيدين هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم. قيل: إنه قال هذا خفية في نفسه. وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم. وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، كما قال تعالى: ﴿فَظَرَنَّا فِي النُّجُومِ﴾ ٨٨ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩]، عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم، ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي تستحق أن تكسر، وأن تهان غاية الإهانة، فلما خرجوا إلى عيدهم، واستقر هو في بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّ﴾ [الصافات: ٩١]، أي ذهب إليها مسرعاً مستخفياً، فوجدها في بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها، فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلْنَ﴾ ٩١ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ ٩٢ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣]؛ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدم في يده، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ [الأنبياء: ٥٨]، أي حطاماً كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا﴾ ٥٨ ﴿لَهُمْ لَعَالَهُمْ إِلَهٌ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، قيل: إنه وضع القدم في يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار، فلما رجعوا من عيدهم، ووجدوا ما حل بمعبودهم ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا إِلَهَتُنَا إِنَّهُ لَمِنَ الْأَفْكَالِيِّنَ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون، وهو ما حل بالهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسهم من أرادها بسوء، لكنهم قالوا من جهلهم، وقلة عقلهم، وكثرة ضلالهم، وخبالهم: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذِهِآ إِلَهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩-٦٠]، أي يذكرها بالعيب، والتنقص لها، والازدراء بها، فهو المقيم عليها، والكاسر لها، وعلى قول ابن مسعود أي يذكرهم بقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]، أي في الملاء الأكبر على رءوس الأشهاد، لعلمهم يشهدون مقالته، ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه، وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يجتمع الناس كلهم، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

فلما اجتمعوا وجاءوا به. كما ذكروا: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣]، قيل: معناه هو الحامل لي على تكسيرها، وإنما عرض لهم في القول ﴿فَسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول أن هذه لا تنطق، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، أي فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي في تركها لا

حافظ لها، ولا حارس عندها ﴿ثُمَّ تَكُفُّوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥]. قال السدي: أي ثم رجعوا إلى الفتنة، فعلى هذا يكون قوله: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾، أي في عبادتها. وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، أي فأطرقوا، ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ فعند ذلك قال لهم الخليل ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ١٦ ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]، كما قال: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ [الصفات: ٩٤]. قال مجاهد: يسرعون. ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصفات: ٩٥]، أي كيف تعبدون أصنامًا أتم تنحتونها من الخشب والحجارة، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، وسواء كانت (ما) مصدرية أو بمعنى (الذي)، فمقتضى الكلام: أنكم مخلوقون، وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يعبد مخلوق مخلوقًا مثله، فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطل، فالآخر باطل للتحكم؛ إذ ليست العبادة تصلح، ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له. ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَهِيمِ﴾ ١٧ ﴿فَإَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصفات: ٩٧-٩٨]. عدلوا عن الجدل والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة، إلى استعمال قوتهم وسلطانهم، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطينانهم، فكادهم الرب جل جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهَتَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾ ١٨ ﴿فَلَمَّا نَارُ كُوِّنِي

بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٨﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٩﴾

[الأنبياء: ٦٨-٧٠]. وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة، فوضعوا فيها ذلك الحطب، وأطلقوا فيه النار، فاضطربت وتأججت والتهبت، وعلاها شر لم ير مثله قط، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق، صنعه لهم رجل من الأكراد، يقال له: هيزن، وكان أول من صنع المجانيق، فحسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه، وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك. فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا، ثم ألقوه منه إلى النار، قال: حسبنا الله، ونعم الوكيل. كما روى البخاري، عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ النَّارَ فَاتَّخَذَ مِنْهَا دُونَهُ مُنْتَلَىًٰ لِيَلْجَأَ إِلَيْهَا وَنَادَىٰ فِيهَا بِكَلِمَاتٍ مُّطَهَّرَةٍ ۚ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ هَارَانَ الْمَلَكَ شَالِيتَ ۖ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَمَّا أَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ فِي السَّمَاءِ وَاحِدٌ، وَأَنَا فِي الْأَرْضِ وَاحِدٌ أَعْبُدُكَ»^(١).

(١). أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (رقم ٧٥)، والبخاري في مسنده (١٩/١٦) رقم ٩٠٤٧، وأبو نعيم في الحلية (١٩/١)، وابن قدامة في صفة العلو (رقم ٤٢)، حسنه

وذكر بعض السلف: أن جبريل عرض له في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. ويروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبير أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أومر فأرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع ﴿قُلْنَا يَنْزِلْ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، قال علي بن أبي طالب: أي لا تضريه، وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ لأذى إبراهيم بردها. وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار، ولم يحرق منه سوى وثاقه. وقال الضحاك: يروى أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَام كان معه يمسح العرق عن وجهه، لم يصبه منها شيء غيره. وقال السدي: كان معه أيضًا ملك الظل. وصار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في مثل الجونة حوله النار، وهو في روضة خضراء، والناس ينظرون إليه لا يقدرّون على الوصول إليه، ولا هو يخرج إليهم، فعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وروى ابن عساكر، عن عكرمة: أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عَلَيْهِ السَّلَام فنادته: يا بني إني أريد أن أجيء إليك، فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك. فقال: نعم. فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته، وقبلته، ثم عادت. وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين، وإما خمسين يومًا، وأنه

الناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (٣٠٢/٢)، بينما ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٦٠/٣) رقم (١٢١٦).

قال: ما كنت أيامًا وليالي أطيّب عيشًا، إذ كنت فيها، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها. صلوات الله وسلامه عليه.

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا، قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]. وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصفات: ٩٨]، ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردًا ولا سلامًا، ولا يلقون فيها تحية ولا سلامًا، بل هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

وعن سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحًا موضوعًا، فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأزواج، نقلهن به، فإن رسول الله ﷺ حدثنا «أن إبراهيم حين أُلقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه»^(١)، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

ولما ادعى واحد من قوم إبراهيم الربوبية، ونازع الله في إزار العظمة ورداء الكبرياء، فادعى الربوبية، وهو أحد العبيد الضعفاء، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ

(١). أخرجه أحمد (٢٩٤/٤١ رقم ٢٤٧٨٠)، ابن ماجه (١٠٧٦/٢ رقم ٣٢٣١)، وصححه ابن حبان (٤٤٧/١٢ رقم ٥٦٣١)، وقد صح عن أم شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام» أخرجه = البخاري (١٤١/٤ رقم ٣٣٥٩)، ومسلم (١٧٥٧/٤ رقم ٢٢٣٧).

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْنِي. وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي. وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨]. يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد، الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ دليله، وبين كثرة جهله وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، قاله مجاهد. وقال غيره: نمروذ بن فالج بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح. قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا.

فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة مؤمنان وكافران، فالْمُؤْمَنَانِ: ذو القرنين وسليمان. والكافران: النمروذ وبختنصر، وذكروا أن نمروذاً هذا استمر في ملكه أربع مئة سنة، وكان قد طغا وبغا، وتجبر وعتا، وأثر الحياة الدنيا، ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الإمهال على إنكار الصانع، فحاج إبراهيم الخليل في ذلك، وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال له الخليل: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْنِي. وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي. وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. قال قتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق: يعني أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا، وأمات الآخر، وهذا ليس بمعارضة لل خليل، بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو

انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات؛ من إحياء الحيوانات، وموتها على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة، وعدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة؛ من خلقها، وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب، والرياح، والسحاب، والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها. ولهذا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فقول هذا الملك الجاهل: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾. إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل؛ إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل، ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود، وانقطاعه جهرة، قال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق، كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت، فأنت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحيي ويميت، هو الذي يفعل ما يشاء، ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة، أو تنتصر منها، فبين ضلاله وجهله، وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه

وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت؛ ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد ذكر السدي: أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود، يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وعن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطي الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كتيب من التراب، فملأ منه عدليه. وقال: أشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله، وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملائنين طعاماً طيباً، فعملت منه طعاماً، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه، فقال: أننى لكم هذا؟! قالت: من الذي جئت به. فعرف أنه رزق رزقهموه الله ﷻ.

وقال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم الثالثة فأبى عليه. وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي. فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودماهم، وتركهم عظاماً بالية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك، فمكثت في

منخرجه أربع مئة سنة، عذبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمرابز في هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله ﷻ بها، والله تعالى أعلم.

ذكر هجرة الخليل إلى بلاد الشام ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦-٢٧]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٢) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣]. لما هجر قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده، فعلى أحد نسله وعقبه، خلعة من الله وكرامة له، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه ﷻ، ودعوة الخلق إليه، والأرض التي قصدتها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله ﷻ: ﴿وَنَجِّنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، قاله أبي بن كعب، وأبو العالية، وقتادة، وغيرهم.

وروى العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
لِلْعَالَمِينَ﴾. مكة ألم تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]. وزعم كعب الأحبار: أنها
حران. وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب: أنه خرج من أرض بابل هو وابن
أخيه لوط، وأخوه ناحور، وامرأة إبراهيم سارة، وامرأة أخيه ملكا، فنزلوا
حران، فمات تارخ أبو إبراهيم بها.

والمشهور: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً
من بلاده، والله أعلم. وذكر أهل الكتاب: أنه لما قدم الشام أوحى الله
إليه إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك، فابتنى إبراهيم مذبحاً
لله شكراً على هذه النعمة، وضرب قبته شرقي بيت المقدس، ثم انطلق
مرتحلاً إلى اليمن، وأنه كان جوع أي قحط وشدة، وغلاء فارتحلوا
إلى مصر، وذكروا قصة سارة مع ملكها، وأن إبراهيم قال لها قولي:
أنا أخته. وذكروا إعدام الملك إياها هاجر، ثم أخرجهم منها، فرجعوا
إلى بلاد التيمن، يعني أرض بيت المقدس، وما والاها، ومعه دواب
وعبيد وأموال.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ
يَكْذِبْ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ فِي ذَاتِ اللَّهِ: قَوْلُهُ: إِنْ أُنِي سَقِيمٌ.
وقوله: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا. وبينما هو يسير في أرض جبار من
الجبابرة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار، فقبل له: إنه قد نزل ها هنا رجل
معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: إنها أختي،
فلما رجع إليها قال: إن هذا سألتني عنك، فقلت: إنك أختي، وإنه ليس

اليوم مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي، فلا تكذِبيني عنده، فانطلق بها، فلما ذهب يتناولها أُخِذَ، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك، فدعت له، فأرسل فذهب يتناولها، فأخذ مثلها أو أشد منها، فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك. فدعت فأرسل ثلاث مرات، فدعا أدنى حشمه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكن أتيتني بشيطان، أخرجها، وأعطاها هاجر. فجاءت وإبراهيم قائم يصلي، فلما أحس بها انصرف، فقال: مهيم؟ فقالت: كفى الله كيد الظالم، وأخدمني هاجر^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعي إلى ألَهِتهم، فقال: إني سقيم. وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. وقوله لسارة: إنها أختي. قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس. قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أختي. قال: فأرسل بها. قال: فأرسل بها إليه. وقال: لا تكذبي قولي، فإني قد أخبرته أنك أختي، إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت توضأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله». قال أبو الزناد قال أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة أنها قالت: «اللهم إن يمت يقل: هي قتلته. قال: فأرسل. قال: ثم قام إليها. قال: فقامت توضأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت تعلم أنني آمنت بك

(١). أخرجه البخاري (١٤٠/٤ رقم ٣٣٥٨)، ومسلم (١٨٤٠/٤ رقم ٢٣٧١).

وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله». قال أبو الزناد، وقال أبو سلمة، عن أبي هريرة أنها قالت: «اللهم إن يمّث يقل هي قتلته. قال: فأرسل. قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إليّ إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها هاجر. قال: فرجعت فقالت لإبراهيم: أشعرت؟ إن الله رد كيد الكافر وأخدم وليدة»^(١).

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: «ما منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾»، وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي». فقلوه في الحديث: «هي أختي»، أي في دين الله، وقوله لها: «إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك». يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك، ويتعين حمله على هذا؛ لأن لو طأ كان معهم، وهو نبي عليه السلام، وقوله لها لما رجعت إليه: مهيم؟ معناه ما الخبر فقالت: «إن الله رد كيد الكافر»، وفي رواية «الفاجر»، وهو الملك «وأخدم جارية»، وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلي لله ﷻ، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء، وهكذا فعلت هي أيضاً، كلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله ﷻ بما تقدم من الدعاء العظيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحببيه وخليله إبراهيم عليه السلام.

(١). أخرجه البخاري (٨٠/٣) رقم (٢٢١٧).

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة؛ سارة، وأم موسى، ومريم عليهن السلام، والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن، ورأيت في بعض الآثار: أن الله ﷻ كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهدًا لها، وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه؛ ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبًا شديدًا لدينها، وقرباتها منه، وحسنها الباهر، فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولله الحمد والمنة.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية، ثم إن لوطًا عليه السلام نزع بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور، المعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدوم، وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشرارًا كفارًا فجارًا، وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل يأمره أن يمد بصره، وينظر شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك، ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض، وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة، بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية، يؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مَلِكُ أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا»^(١). قالوا: ثم إن طائفة

(١). أخرجه مسلم (٢٢١٥/٤) رقم ٢٨٨٩.

من الجبارين تسلطوا على لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فأسروه، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ سار إليهم في ثلاث مئة وثمانية عشر رجلاً، فاستنقذ لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، واسترجع أمواله، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم، وساق في آثارهم حتى وصل إلى شمالي دمشق، وعسكر بظاهرها عند برزة، وأظن مقام إبراهيم المنسوب إليه ببرزة اليوم إنما سمي؛ لأنه كان موضع موقف جيش الخليل، والله أعلم. ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين، واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

وإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل الله ذرية طيبة، وأن الله بشره بذلك، وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشر سنين، قالت سارة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن الرب قد أحرمني الولد، فادخل على أمتي هذه، لعل الله يرزقنا منها ولداً. فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فحين دخل بها حملت منه. قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاضمت على سيدتها، فغارت منها سارة، فشكت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها: افعلي بها ما شئت. فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافي، فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً. وأمرها بالرجوع، وبشرها أنها ستلد ابناً، وتسميه إسماعيل، ويكون وحش الناس، يده على الكل، ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته، فشكرت الله ﷻ على ذلك.

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذي سادت به العرب، وملك جميع البلاد غربًا وشرقًا، وأتاه الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم يؤت أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل وبركة رسالته ويمن بشارته وكماله فيما جاء به. وعموم بعثته لجميع أهل الأرض.

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَام قالوا: ولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة. ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة فخر لله ساجدًا. وقال له: قد استجبت لك في إسماعيل، وباركت عليه وكثرته، ونميته جدًّا كبيرًا، ويولد له اثنا عشر عظيمًا، وأجعله رئيسًا لشعب عظيم. وهذه أيضًا بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشر عظيمًا هم الخلفاء الاثنا عشر المبشر بهم في حديث عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يكون اثنا عشر أميرًا». ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبي ما قال؟ قال: «كلهم من قريش». أخرجاه في الصحيحين، وفي رواية: «لا يزال هذا الأمر قائمًا». وفي رواية: «عزيزًا حتى يكون اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش»^(١). فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومنهم عمر بن عبدالعزيز أيضًا، ومنهم بعض بني العباس، وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقًا، بل لا بد من وجودهم، وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذي يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم علي بن أبي طالب،

(١). أخرجه البخاري (٨١/٩ رقم ٧٢٢٢)، ومسلم (١٤٥٢/٣-١٤٥٣ رقم ١٨٢١).

وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا، وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وأحمد نار الفتنة، وسكن رحي الحروب بين المسلمين، والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور، وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا، فذاك هوس في الرؤوس، وهذيان في النفوس، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود: أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما، قامت إليه هاجر وتعلقت بشيابه، وقالت: يا إبراهيم أين تذهب، وتدعنا هنا، وليس معنا ما يكفيننا؟ فلم يجبها، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها، قالت له: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: فإذا لا يضيعنا. وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمته الله في كتاب النوادر: أن سارة تغضبت على هاجر، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها، وأن تخفضها، فتبر قسمها. قال السهيلي: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من تثبت أذنيها منهن، وأول من طولت ذيلها.

ذكر مهاجرة إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وأمه هاجر

إلى جبال فاران، وهي أرض مكة وبنائه البيت العتيق.

عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب، وتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: أالله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى. أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك

سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه. تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضهن، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم»، أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتية السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لعهدنا بهذا الوادي، وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك. قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال عبدالله بن عباس قال النبي ﷺ: «فأنفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته،

فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم. جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم. أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك. فطلقها وتزوج منهم أخرى، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حُبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ حُبٌّ لَدَعَا لَهُمْ فِيهِ فَهَمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَةٍ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ».

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عَلَيْهِ السَّلَامَ، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة وأمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبلاً له تحت دوحه قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد

والوالد بالولد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني. قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال: وجعلا بينان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ (٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۝ (١) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]، يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله، إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم، أنه بنى البيت العتيق، الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه، وبوآه الله مكانه، أي أرشده إليه ودله عليه^(٢).

(١). أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٠٥/٥ رقم ٩١٠٧)، والنسائي في سننه الكبرى

(٣٩٩/٧-٤٠١ رقم ٨٣٢٠ و٨٣٢١)، والبيهقي في الكبرى (١٦٠/٥ رقم ٩٣٧٠).

(٢). البداية والنهاية مرجع سابق (١/٣٣٤-٤٠٠).

الشرك في قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومنهجه في محاربته.

وبعد مدة طويلة من الزمن، ظهر في بابل عباد الأصنام، كما ظهر في حران عباد الكواكب والأصنام، فبعث الله تعالى فيهم إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وعن معبودات أهل بابل، يذكر صاحب قصة الحضارة: بأنه كان لأهل بابل كثير من الآلهة ... ذلك أن كل مدينة كان لها رب يحميها، وقد كان للمقاطعات والقرى آلهة صغرى تعبدها وتخلص لها، وإن كانت تخضع رسمياً للآله الأعظم، ثم قل عدد الآلهة شيئاً فشيئاً بعد أن فسرت الآلهة الصغرى بأنها صور أو صفات للآلهة الكبرى، وعلى هذا النحو أصبح (مزدك) إله باب كبير الآلهة البابلية. وكان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة، فشادوا لها الهياكل وأمدوها بالأثاث والطعام والعباد^(١).

وأما عباد الكواكب من أهل حران، فكانوا على مذهب الصابئة المتعصبة للروحانيات، وهم يقولون بأن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً، ولا يمكن الوصول إلى جلاله ومعرفته، وإنما يتقرب إليه بواسطة المقربين إليه، وهم الروحانيون المطهرون، الذين ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١). قصة الحضارة: ول ديورانت - ويليام جيمس ديورانت، تقديم: الدكتور محيي الدين صابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجليل، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م (٢١١/٢).

فَوَ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿[التحریم: ٦].﴾

ويعتقدون أن الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها، هي هياكل للروحانيات، فلكل روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به كنسبة الروح إلى الجسد، فهو ربه ومدبره، وكانوا يسمون الهياكل أربابًا، وربما يسمونها آباء، والله تعالى هو رب الأرباب، وإله الآلهة، ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة، ورب الأرباب^(١).

إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى التوحيد

جادل إبراهيم عليه السلام وناقش قومه بالحجة والبرهان، دون خوف أو مبالاة من أحد، وهو فريد لا يجد من ينصره، أو يشد أزره، حتى إن والده، وهو أقرب الناس إليه وقف له بالمرصاد.

ولكن إبراهيم عليه السلام سار في طريقه، لا يأبه لشيء، وأعلن في الناس دعوته متحديًا كل من يتصدى له، قائلا: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَبِيرًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

ولما كان والد إبراهيم عليه السلام أعلم القوم بصناعة الأصنام، وكان الناس يشترونها منه، كان إبراهيم عليه السلام يحمل أكثر وأقوى الإلزامات

(١). الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي (١٠٧/٢).

على والده، وقد ضرب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ المثل الرائع في الجمع بين قوة الحجة والإقناع، وأدب الحديث مع والده.

وقد قص الله تعالى لنا تلك المجادلة في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

وفي هذه الآيات نحس أسلوب الداعية المخلص في التوجيه والتعليم، الذي يحذر في لطف وينذر في لين، ويعرف منزلة الأبوة ومكانتها، فيعطئها حقها من اللين والاحترام.

ومع أن تلك الأبوة لم تقابل هذه الدعوة بالحنان والشفقة، بل انقلبت إلى نار تتأجج وجحيم يتوقد، تمثل ذلك في قول تلك الأبوة الظالمة: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَابِرْهُمْ لَيْنٌ لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]. فإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقابل تلك الشدة بمثلها، كما يفعل الأبناء الجهلة، ولكنه قابل تلك الشدة باللين والإحسان، فهو يقول لوالده: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

وهذا الاستغفار من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما كان طمعاً منه في إيمان أبيه، ولكنه حينما ظهر له إصراره على الشرك، وعداوته المتأصلة لدين الله تعالى، تبرأ منه وقطع صلته به، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ آسِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وأما دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لقومه الوثنيين، فقد سلك معهم منهجاً مرتباً، لا تعقيد فيه ولا غموض، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿[العنكبوت: ١٦-١٨].

فمن خلال الآيات الكريمة، نرى أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام قد دعا قومه دعوة بسيطة واضحة، وهي مرتبة في عرضها ترتيباً دقيقاً يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوة، لينسجوا على منواله في مخاطبة النفوس والقلوب.

١. فهو أولاً: بدأ ببيان حقيقة الدعوة التي يدعوهم إليها: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾.

٢. ثم أثنى بتحبيب هذه الحقيقة إليهم، وما تضمنته من الخير لهم، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٣. وفي الخطوة الثالثة يبين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه:

أ. إنهم يعبدون من دون الله أوثانًا، والوثن - التمثال من الخشب - وهي عبادة سخيفة، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله.

ب. إنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل، وإنما يخلقون إفكًا وينشئون باطلًا من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة.

ج. إن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعًا، ولا ترزقهم شيئًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

٤. وفي الخطوة الرابعة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق، الأمر الذي يهمهم ويمس حاجتهم ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾، والرزق مشغلة النفوس، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان، ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استشارة للميول الكامنة في النفوس.

وفي النهاية يهتف بهم إلى وهاب الأرزاق المتفضل بالنعمة، ليعبدوه ويشكروه: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾، ويكشف لهم أنه لا مفر من الله، فمن الخير أن يتوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٥. وأخيرًا بين لهم أنهم إن كذبوا بعد ذلك فلن يضروا الله شيئًا، ولن يخسر رسوله شيئًا، فقد كذب الكثيرون من

قبل، وما على الرسول إلى واجب التبليغ ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾
[العنكبوت: ١٨].

بهذا الأسلوب المثالي في الدعوة، أخذ إبراهيم عليه السلام يدعو قومه، ولكنه حينما لم يجد قبولاً لدعوته أو سماعاً لتوجيهاته ونصائحه، أخذته الغيرة والحماس لدين الله تعالى ونصرته، فصاح بهم قائلاً: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، ﴿أَيُنْفَكُ إِلَهُةٌ دُونَ اللَّهِ يُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦]. ثم توعدهم بتحطيم تلك الأصنام في غيابهم ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وكان للقوم عيد يخرجون فيه كل عام بعيداً عن العمران، وطلبوا من إبراهيم أن يشاركهم في بهجة ذلك الاحتفال، لكنه رفض مشاركتهم، واعتذر بقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، ولما خرجوا إلى ذلك الاحتفال، وغادروا المساكن والعمران، ذهب إبراهيم عليه السلام إلى معبودات أولئك القوم، فوجد أنهم وضعوا أمامهم شتى أنواع الأطعمة والأشربة، فقال في تهكم لهذا العمل السخيف: ﴿فَرَأَى إِلَهُ الْهِمَمِ فَقَالَ أَأَنَا كُلُّونَ ۖ﴾ [الصافات: ٩١-٩٢].

ثم انفلت عليها يحطم ويهدم، وقد ترك كبير الأصنام ليقم به على قومه الحجة، لعلمهم فيبقون إلى رشدهم، ويرعون عن غيهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

وبعد أن انتهى القوم من احتفالهم ورجعوا إلى أصنامهم، فوجئوا بما حدث، قال بعضهم لبعض في دهشة: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَتَّبِعُهُمْ ٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿[الأنبياء: ٥٩-٦٣].

كان من المفروض أن يفيق أولئك القوم إلى رشدهم عند هذا الحد، ويوقنوا بسخافة عبادتهم لها، ولكن القوم استمروا في غيهم وجدالهم، وقالوا لإبراهيم: ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]. ورد عليهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ساخرًا منهم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ٦٦﴾ أَيْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿[الأنبياء: ٦٦-٦٧].

ولما لم يبق في أيدي القوم شيء يحتجون به، عدلوا عن الجدل والمناظرة، وقرروا استخدام القوة والسلطان، لنصرة ما هم عليه من ضلال وباطل: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. وألقوا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في نار مستعرة انتقامًا منه، ومما يدعو إليه، ولكن الله تعالى صرف كيدهم، وجعل تلك النار بردًا وسلامًا عليه، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَنْزِلُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخِزِينَ ﴿[الأنبياء: ٦٩-٧٠].

ولما سمع الملك الطاغية نمرود بن كنعان عن نجاة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من النار، خشي على نفسه ومنصبه، فاستدعاه ليناقشه عن إلهه الذي يعبد، ويدعو الناس إلى عبادته، فأجابه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن ربه الذي يحيي ويميت، ولكن النمرود أجاب بأنه هو كذلك يحيي ويميت، قال ابن قتادة وابن إسحاق والسدي وغيرهم: أنه كان يؤتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فيأمر بقتل أحدهما فيقتل، ويعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة في نظره^(١).

قال ابن كثير: والظاهر -والله أعلم- أنه ما أراد هذا، لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم، ولا في معناه، لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]^(٢).

ولما رأى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حماقة الطاغية ومشابھته في الدليل، عدل إلى دليل آخر، أجدى وأروع وأشد إفحاماً، فقال له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِأَيْدِي

(١). ذكر هذا الأثر ابن كثير في تفسيره (٦٨٦/١)، دون ذكر عبارة: في نظره. فهذه من زيادات المؤلف صاحب كتاب منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين.

(٢). تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م (٦٨٦/١).

بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴿البقرة: ٢٥٨﴾. عند ذلك أخرس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة، وأصبح مبهوراً لا يستطيع أن ينطق بكلمة، وكأنما ألقم الحجر.

اقرأ هذه المناظرة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى اللَّهِ دِينَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعِيتُهُمْ حُجُوجُهُمْ إِنْ كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكانت نهاية هذا الطاغية كما ذكر ابن كثير عن زيد بن أسلم قال: دخلت بعوضة واحدة في منخر النمرود، وأخذ يعذبه الله بها مدة طويلة، حتى كان يضرب رأسه بالمرزاب، حتى أهلكه الله بها^(١).

ولما انتقل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أرض بابل إلى منطقة حران، وأمله أن يجد من أهلها قلوباً تتفتح إلى النور والهدى، ولكنه مع الأسف وجد أهلها أشد ظلاماً، وأكثر جهلاً، حيث جدهم يعبدون ويؤلهون الشمس والقمر والنجوم، فعند ذلك نزل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حلبة الميدان، يجادل بالحجة والبرهان، مستخدماً معهم طرق العقل والمنطق، لعلمهم يفيقون إلى رشدهم، ويعبدون الإله الحق الذي يسير تلك الكواكب، والآيات التالية تبين لنا الأسلوب الذي سلكه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ معهم في التدرج إلى معرفة الخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١). تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق (١/٦٨٧).

قال ﷺ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ تَمَّ يَهْدِي رَبِّي لَا كُفْرَتْ مِن الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوْرٌ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٦-٨٣].

ونلاحظ من خلال الآيات الكريمة أن إبراهيم عليه السلام قد أعلن لهم خيبة أمله في جميع هذه الكواكب، وأن واحداً منها لا يستحق أن يكون إلهاً حقاً، فهي تظهر من هنا، وتغيب من هنا، وإذا كانت الآلهة تغيب، فمن الذي يرعى الخلائق عند غيابها، أو من يدبر أمرها إذا أفلت. فلا بد إذا من إله خالق الكل، وهيمن على مسيرتها وحركتها، حتى أكبرها لا يعدو أن يكون واحداً من هذه الكواكب السيارة. ورب هذه الكواكب هو الذي ينبغي التوجه إليه، وصرف العبادة له^(١).

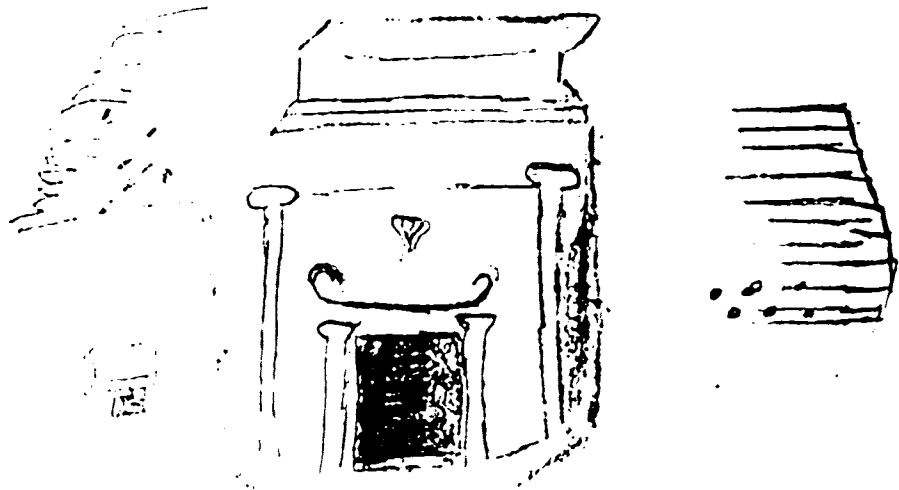
(١). منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام: د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، = عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية،

العبر والعظات المستفادة

قصص النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام مع قومه كثيرة وغنية بالعبر والعظات والدروس، فإبراهيم كان أمة وحده، وأثره في ذريته الأنبياء، وتاريخ الدنيا كلها، فمنها:

١. الصبر على المصائب وتحمل الأذى.
٢. القيام بالدعوة بغض النظر عن النتائج.
٣. البر بالوالد والتلطف له والدعاء له بقصد الهداية.
٤. حسن التوكل على الله وتفويض الأمر إليه والثقة واليقين في الله برغم كل الشدائد مع الأخذ بالأسباب.
٥. الهجرة من أرض الكفر بالله مع انقطاع السبل.
٦. تكريم الله لإبراهيم وأسرته بجعل مناسك الحج من أركان وواجبات وسنن إحياء وتذكيراً بأعماله وفضله؛ فالكعبة بناؤه، والمقام مقامه، والوقوف بعرفة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات.
٧. تخليد الله ذكر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وجعل له لسان صدق في الآخرين بسبب الطاعة.

قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَام



نسبهم

نسب النبي لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ هو: لوط ابن أخي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهاران بن تارح^(١).

موقعهم الجغرافي

ذكر المفسرون أنها خمس قرى. ومدائن قوم لوط خمس: سدوم وصبعة وعمرة ودوما وصعوة وسدوم هي القرى العظمى . وذكر أن داروما إحدى مدن قوم لوط بفلسطين ولعلها الداروم. وقيل سدوم قصبة قرى قوم لوط. وهي بين الحجاز والشام وهي فلسطين. كما قيل: إن زعورا مدينة من مدائن قوم لوط لواء: لم ينجم من العذاب سواها، لأنها كانت مختصة بلوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهلك ما عداها، وبقيت خبرهم يرد في ذكر سدوم^(٢). وذكر أبو الحسن الشباني أن لوطاً هاجر مع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى مصر، وعادوا إلى الشام، وذكر مقام لوط بسدوم. سدوم فقد تحولت بعد الخسف إلى بحيرة منتنة خبيثة وثقيلة ذات مياهٍ عالية الكثافة، ويُعتقد بأن البحر الميت هو مكان الخسف بقرى قوم لوط^(٣).

(١). انظر: كتاب قصص الأنبياء لأمام الحافظ بن كثير (١٥٠/١)

(٢). انظر: معجم البلدان: ياقوت بن عبدالله الحموي، دار الفكر، بيروت (٩٣/١)، (٤٢٤/٢)، آثار البلاد وأخبار العباد: القزويني (٨٠/١)، والروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبد المنعم الحيمري، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، (٢٩٤/١).

(٣). كتاب الكامل في التاريخ أبو الحسن الشيباني (٩١/١).

صفاتهم

ذكر أبو مطهر في كتابه في رواية سعيد عن قتادة عن الحسن قال عشر خصال عملها قوم لوط بها أهلكوا كانوا يأتون الرجال ويلعبون بالحمام ويضربون بالدفوف ويرمون بالجلاشق ويخذفون بالأصابع ويلبسون الحمرة ويصفقون بأيديهم ويصفرون بأفواههم ويشربون الخمر ويقصرون اللحى ويطولون الشوارب وروى غيره كانوا يضربون في النادي وينزو بعضهم في وجه بعض ويمضغون العلك ومع ذلك يقطعون الطريق ويغتصبون الناس ويستهزؤون بلوط^(١).

حياتهم

مما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصة قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَام، وما حل بهم من النقمة العظيمة، وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح، وهو آزر، كما تقدم، ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة. وكان لوط قد نزع عن محلة عمه الخليل عَلَيْهِ السَّلَام بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، وكانت أم تلك المحلة ولها أرض ومعملات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له،

(١). انظر: البدء والتاريخ: ابن المطهر (١٤٢/١).

ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات، والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مثلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين؛ ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين، فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ ٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿[الأعراف: ٨٠-٨٤].

وقال تعالى في سورة هود ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ ﴿إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمَرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿[هود: ٦٩-٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّصِيبٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ [الحجر: ٥١-٧٧].

وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بَيَاتِي وَلَوْ تُفَيْطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٥٤-٥٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥].

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم بإياه بغلام عليم: ﴿قَالَ فَاخْطُبُكُمُ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٧].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ
 بِسَحَرٍ ﴿إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِيَ وَنَذِيرِ﴾ (٣٦) وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْفُرْءَانِ لِلذِّكْرِ
 فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٣٣-٤٠].

وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع آخر من القرآن، تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمرود.

وذلك أن لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهوا، بل استمروا على حالهم، ولم يراعوا عن غيهم وضلالهم، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم، إذ كانوا لا يعقلون: إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْطَهَرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]

فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج، وما حملهم على مقالتهن هذه إلا العناد واللجاج، فطهره الله وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلتهن خالدين لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج وحر يتوهج، وماؤها ملح أجاج، وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى والفاحشة الكبرى، التي لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا؛ ولهذا صاروا مثلة فيها، وعبرة لمن عليها، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم وهو مجتمعهم ومحل

حديثهم وسمهم المنكر من الأقوال، والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم ولا يستحيون من مجالسهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستكفون، ولا يرفعون لوعظ واعظ، ولا نصيحة من ناقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلاً، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً، وقالوا له فيما قالوا: ﴿أَيْنَكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين، فغار الله لغيرته، وغضب لغضبه، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم، وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم، والخطب العميم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢) ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَ مِنْ طِينٍ﴾ (٣٣) ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤]. وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا لَنَجْئَنَّ بِكَ أَعْلَمُ مِنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ. كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢]. وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا

جَزَؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ [هود: ٧٤]. وذلك أنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمُ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾ ﴿٧٥﴾ يَتَابِرْهِمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَاتِلْمُهُمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٥-٧٦]، أي أعرض عن هذا، وتكلم في غيره، فإنه قد حتم أمرهم، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم. ﴿قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٧٦]، أي قد أمر به من لا يرد أمره، ولا يرد بأسه، ولا معقب لحكمه ﴿وَإِنَّهُمْ لَاتِلْمُهُمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦].

وذكر سعيد بن جبير، والسدي، وقتادة، ومحمد بن إسحاق: أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاث مئة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: فمائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: فأربعون مؤمنًا قالوا: لا. قال: فأربعة عشر مؤمنًا؟ قالوا: لا. قال ابن إسحاق إلى أن قال: أف رأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا. ﴿قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا فَقُلُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣٢]، الآية. وعند أهل الكتاب أنه قال: يا رب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلًا صالحًا؟ فقال الله: لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحًا. ثم تنازل إلى عشرة، فقال الله: لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]. قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم؛ جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صورة شبان حسان اختبأوا من الله تعالى

لقوم لوط، وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره من القوم الفاسقين، وحسبهم بشرًا من الناس ﴿يَسَىٰٓ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه، وذلك لما يعلم من مدافعة الليلة عنهم، كما كان يصنع بغيرهم معهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه. وذكر قتادة أنهم وردوا عليه، وهو في أرض له يعمل فيها، فتضيفوه فاستحى منهم، وانطلق أمامهم، وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية، وينزلون في غيرها، فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال: وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك. وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم، لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان اسم الكبرى أريثا، والصغرى دغوثة، فقالوا لها: يا جارية هل من منزل؟ فقالت لهم: مكانكم، لا تدخلوا حتى آتيكم. فرقت عليهم من قومها، فأتت أباهما فقالت: يا أبتاه أراك فتیان على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فجاء بهم، فلم يعلم أحد إلا أهل

البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيتم مثل وجوههم قط. فجاءه قومه يهرعون إليه.

وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨]، أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ﴿قَالَ يَقَوْمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. يرشدهم إلى غشيان نسائهم، وهن بناته شرعاً؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد، كما ورد في الحديث، وكما قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. وفي قراءة بعض الصحابة والسلف: «وهو أب لهم»، وهذا كقوله: ﴿اتَّخَذُوا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

وهذا هو الذي نص عليه مجاهد، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وهو الصواب. والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب. وقد تصحف عليهم، كما أخطئوا في قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، وإنهم تعشوا عنده، وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيماً.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، نهى لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة، ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء فجرة أقوياء كفره أعتياء. وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسأله عنه، فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد،

مجيئين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]. يقولون عليهم لعائن الله: لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا، وغرضنا. واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة العظيم ذي العذاب الأليم؛ ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. ود أن لو كان له بهم قوة أو له منعة، وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب، وعن أبي هريرة مرفوعاً «نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(١). وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد». يعني الله ﷻ «فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»^(٢). وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۖ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۖ ۝١٨ وَقُولُوا لِلَّهِ وَاَلَا تُخْزَوْنَ ۖ ۝١٩ قَالُوا أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۖ ۝٢٠ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٦٧-٧١]. فأمرهم بقربان نسائهم، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم، هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعون، بل كلما نهاهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون، ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم منتقلون؛ ولهذا قال تعالى مقسماً بحياة

(١). أخرجه البخاري (١٤٧/٤ رقم ٣٣٧٢)، ومسلم (١٣٣/١ رقم ١٥١).

(٢). أخرجه الترمذي (٢٩٣/٥ رقم ٣١١٦)، وحسنه.

نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّمَا لَعْنُ سَكْرَتِهِمْ يَوْمَهُمْ﴾ [الحجر: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّدْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ. فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بَكْرَةٌ عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٦-٣٨]. ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبي الله لوطاً عَلَيْهِ السَّلَام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم، وينهاهم من وراء الباب، فلما ضاق الأمر، وعسر الحال قال ما قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّايَ إِلَى رَبِّي سَدِيدٌ﴾ [هود: ٨٠]. لأحلت بكم النكاح. قالت الملائكة: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، وذكروا أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم، حتى قيل: إنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل، ولا عين، ولا أثر، فرجعوا يتجسسون مع الشيطان، ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ. فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بَكْرَةٌ عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٧-٣٨]. فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عَلَيْهِ السَّلَام آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه. وأمره أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم. وقوله: ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾ [هود: ٨١] على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]، كأنه يقول: إلا امرأتك فلا تسر بها. ويحتمل أن يكون من قوله: ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١]، إلا امرأتك، أي فإنها

ستلتفت فيصيبها ما أصابهم، ويقوي هذا الاحتمال قراءة الرفع، ولكن الأول أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال السهيلي: واسم امرأة لوط والهة، واسم امرأة نوح والغة. وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء، والأشباه الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. فلما خرج لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بأهله، وهم ابنتاه، ولم يتبعه منهم رجل واحد، ويقال: إن امرأته خرجت معه، فالله أعلم. فلما خلصوا من بلادهم، وطلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد، وعند أهل الكتاب: أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذي هناك فاستبعده، وسأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم، فقالوا: اذهب فإننا نتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها، ثم نحل بهم العذاب، فذكروا أنه ذهب إلى قرية صغر التي يقول الناس: غور زغر. فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣].

قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن، وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم يقال: إنهم كانوا أربع مئة ألف نسمة. وقيل: أربعة آلاف ألف نسمة. وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعاملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى

سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها. قال مجاهد: فكان أول ما سقط منها شرفاتها ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]. والسجيل فارسي معرب، وهو الشديد الصلب القوي، منضود أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء مسومة أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه، كما قال: ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْنِفَةَ أَهْوَى﴾ (٥٣-٥٤). يعني قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مسومة مرقوم على كل حجر اسم صاحبه، الذي سقط عليه من الحاضرين منهم في بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها.

ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً، وقالت: واقوماه. فسقط عليها حجر فدمغها، وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم، وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، أي خانتاهما في الدين فلم تتبعاهما فيه، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا، فإن الله لا يقدر

على نبي أن تبغي امرأته، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبي قط. ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً.

أي وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم؛ ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصناً أو لا، نص عليه الشافعي، وأحمد ابن حنبل، وطائفة كثيرة من الأئمة، واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١). وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقي من شاطئ، ويتبع بالحجارة، كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ [هود: ٨٣].

وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه، ممن خالف أمره وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائهم إياهم من المهلكات، وإخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ⑧ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨-٩]، أي من نظر بعين

(١). أخرجه أحمد (٤٦٤/٤ رقم ٢٧٣٢)، وأبو داود (١٥٨/٤ رقم ٤٤٦٢)، والترمذي (٥٧/٤ رقم ١٤٥٦). وصححه الحاكم (٣٩٥/٤ رقم ٨٠٤٧).

الفراصة والتوسم فيهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت أهلة عامرة هالكة غامرة؟ كما روى الترمذي، وغيره مرفوعاً «اتقوا فراصة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(١)، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُمْتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وقوله: ﴿وَلَهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، أي لبطريق مهيع مسلوكة إلى الآن، كما قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ لَنُرَوْنَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ (٧٧) ﴿وَبَالَيْلٍ أَلَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٧]، أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فانزجر عن محارم الله، وترك معاصيه، وخاف أن يشابه قوم لوط، ومن تشبه بقوم فهو منهم، وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه؛ كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم، يمثل ما أمره الله به ﷺ، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، والجواري من السرايري ذوات الجمال، وإياه أن يتبع كل

(١). أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٣/٨ رقم ٧٨٤٣)، والترمذي (٢٩٨/٥) رقم ٣١٢٧، وضعفه.

شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ
الْظَّالِمِينَ﴾ [يَعِيدُ] [هود: ٨٣] (١).

وعلى نفس الطريق وب نفس الدعوة التي دعا بها نوح وهود وصالح
عليهم السلام جاء نبي الله لوط عليه السلام، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك
ما هم عليه من الكفر والشرك. وقد كان قوم لوط عليه السلام يأتون الرجال
شهوة من دون النساء، فحذّرهم عليه السلام من عاقبة هذا الفعل الخبيث
والمرض الفتاك، والمخالف لسنن الفطرة، لكنهم لم يلتفتوا لقوله، ولم
يأبهوا له، ووقفوا منه موقف المعارض والمكابر والمستهزئ بدعوة
الله ورسله. ونتيجة لأفعالهم المنكرة وعدم رجوعهم إلى طريق الحق
والصواب عاقبهم الله عقاباً شديداً، وخسف بهم الأرض ليكونوا عبرة
لمن يعتبر (٢).

(١). البداية والنهاية، مرجع سابق (٤٠٨/١-٤٢٤)، وانظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس
والخليل: مجير الدين الحنبلي العلمي، مكتبة دنديس، عمان، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م (٦٤/١)،
والكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم الشيباني، دار
الكتب العلمية، بيروت، (٩٢/١-٩٣).

(٢). أهل الفترة ومن في حكمهم: موفق أحمد شكري، قدم له: د. عباس محبوب ومحمد
الخطيب، اعتنى بتصحيحه: سمير أحمد العطار. أصل الكتاب: رسالة ماجستير، كلية
أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، إشراف د. عبدالعزيز
الراجحي، مؤسسة علوم القرآن، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى،
١٤٠٩هـ-١٩٨٨م (ص ٤٠).

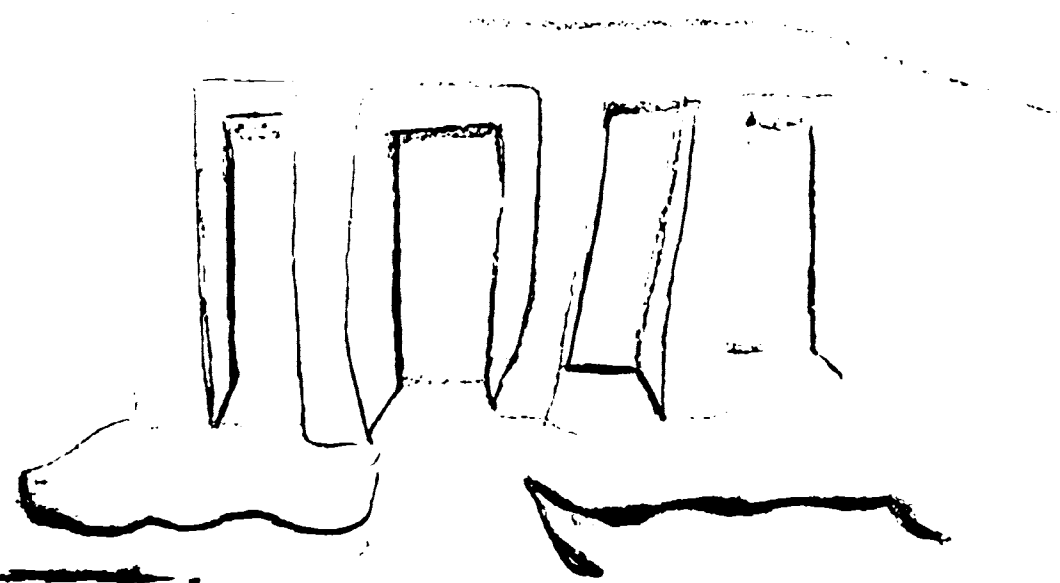
العبر والعظات المستفادة

قصة قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ زاخرة بالدروس وهي من القصص التي ساقها القرآن الكريم بصورتها الواقعية، قاصداً من خلالها عرض حقائق الإيمان، وترسيخ قواعد التوحيد، وبيان سنة الله في التعامل مع الظالمين لأنفسهم، والمعرضين عن طريق الهداية والرشاد.

١. حكمة الله في العقوبة العادلة للمجرمين التي تتناسب مع جرائمهم وقبائحهم.
٢. اتباع الأهواء والشهوات بدلاً من اتباع العقل والفطرة السليمة أدى إلى العقاب بقدر الجرم.
٣. عظم العقاب لعظم الجرم، فقلب الله القرية عاليها سافلها لقلبهم الفطرة السليمة.
٤. إرسال النذير لتحذير المؤمنين، وإبعادهم عن العذاب.
٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن تكون في كل أمة لتقويم المجتمع.



قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَام
(أصحاب الأيكة ، قوم مدين)



نسبهم

قيل: أهل مدين من ولد مدين بن إبراهيم الخليل، وقيل لم يكن شعيب من ولد إبراهيم، وإنما من ولد بعض من آمن بإبراهيم، وهاجر معه إلى الشام. واعلم أن مدين أمة شعيب، هم: بنو مديان بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وأمه قنطوراء ابنة يقطان الكنعانية، ولدت له ثمانية من الولد، تناسلت منهم أمم، وقال المسعودي: قد تنازع أهل الشرائع في قوم شعيب بن نوفل بن رعويل بن مر بن عيقا بن مدين بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وكان لسانه العربية، فمنهم من رأى أنهم من العرب الدائرة والأمم البائدة^(١).

موقعهم الجغرافي

مدينة قوم شعيب، عَلَيْهِ السَّلَام. بناها مدين بن إبراهيم الخليل جد شعيب، وهي تجارة تبوك بين المدينة والشام. بها البئر التي استقى منها موسى، عَلَيْهِ السَّلَام، لما شية شعيب^(٢). وقال القاضي أبو عبد الله القضاعي: مدين وحيزها من كورة مصر القبلية. وقال الحازمي: بين وادي القرى والشام. وقيل: مدين اتجاه تبوك بين المدينة والشام على ست مراحل، وبها استقى موسى^(٣).

(١). انظر: المواعظ والاعتبار: المقرئ (٢٣٤/١)، والمختصر في أخبار البشر (٧/١).

(٢). انظر: آثار البلاد وأخبار العباد: القزويني (١٠٤/١).

(٣). انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت (٧٧/٥).

صفاتهم

كانوا أهل كفر بالله، وبخس للناس في المكايل والموازين وإفساد لأموالهم^(١).

حياتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَنَوَلَّيْنَا عَنْهُمْ وَقَالَ يَبْقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَعْتُمْ كِتَابِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣]، وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانُوا يَنْعِنُونَ فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَدَتْ ثُمُودُ﴾ [هود: ٨٤-٩٥]، وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْتَهُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ

(١). انظر: تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت (١/١٩٧).

عَظِيمٍ ﴿١٨٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٨٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٠﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٩١].

كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام، مما يلي ناحية الحجاز، قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم المدينة، وهم من بني مدين بن مديان ابن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن. ذكره ابن إسحاق، والله أعلم.

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسول قال: «أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر»^(١). وكان بعض السلف يسمي شعيبًا خطيب الأنبياء، يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته، وقد روى إسحاق بن بشر، عن جوير، ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا قال: «ذاك خطيب الأنبياء»^(٢).

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيكة، حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوء

(١). أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٦/٢ رقم ٣٦١)، وأبونعيم في حلية الأولياء (١٦٦-١٦٧)، والآجري في الأربعين (ص ١٩٥ رقم ٤٤)، وانظر: فتح الباري (٤٤٩/٦)، وضعفه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٣٨٤/١) رقم ٣٦٢).

(٢). أخرجه الحاكم (٦٢٠/٢ رقم ٤٠٧١)، وابن أبي الدنيا موقوفًا على سفيان الثوري رحمه الله في العقوبات (رقم ١٨٥)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٦٠/٤).

الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو رسول الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فأمن به بعضهم، وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد، كما قال تعالى: ﴿وَالْإِن مَدَّيْنِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ. قَدْ جَاءَ تَكْثُرُكُمْ بِكِنَّةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، أي دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به. وأنه أرسلني، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات، التي لم تنقل إلينا تفصيلاً، وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالاً.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]، أمرهم بالعدل، ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف ذلك، فقال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ٨٥ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦]، أي طريق توعدون، أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك، وتخيفون السبل، قال السدي في تفسيره عن الصحابة: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعَدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة. وقال إسحاق بن بشر، عن جوير، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كانوا قومًا طغاة بغاة، يجلسون على الطريق، يبخسون الناس، يعني

يعشرونهم، وكانوا أول من سن ذلك ﴿وَصَّدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أُمَّةٍ أَمِنَ بِهِ وَتَبَعُونَهَا عَوْجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]، فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم، إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه، كما قال لهم في القصة الأخرى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه، فيمحق الله بركة ما في أيديكم ويفقركم، ويذهب ما به يغنيكم، وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا، فقد باء بالصفقة الخاسرة، فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في آخراهم، وعَنَّفَهُمْ أَشَدَّ تَعْنِيفٍ، ثم قال لهم أمراً بعدما كان عن ضده زاجراً: ﴿وَيَقِفُوا أَوْتُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥) ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٥-٨٦]. قال ابن عباس والحسن البصري: ﴿يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ﴾، أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف^(١)، وما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل، والميزان خير لكم من أخذ أموال

(١). أخرجه الطبري في تفسيره (٤٤٨/١٥)، وابن أبي حاتم (٢٠٧٢/٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣٤٣/٤)، وتفسير القرطبي (٨٦/٩).

الناس بالتطفيف، وقد روي هذا عن ابن عباس^(١)، وهذا الذي قاله وحكاه حسن، وهو شبهه بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام، فإن الحلال مبارك وإن قل، والحرام مباحق وإن كثر، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الضَّدَقَتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال رسول الله ﷺ: «إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل»^(٢)، رواه أحمد، أي إلى قلة، وقال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»^(٣).

والمقصود: أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام لا يجدي وإن كثر؛ ولهذا قال نبي الله شعيب: ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، أي افعلوا ما أمركم به ابتغاء وجه الله، ورجاء ثوابه، لا لأراكم أنا وغيري ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلُوْكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

(١). ذكره البغوي في تفسيره (١٩٥/٤).

(٢). أخرجه أحمد (٢٩٧/٦ رقم ٣٧٥٤)، والبزار (٤١١/٥ رقم ٢٠٤٢)، وأبو يعلى (٤٥٦/٨ رقم ٥٠٤٢)، والطبراني في الكبير (٢٢٣/١٠ رقم ١٠٥٣٨)، والحاكم (٤٣/٢ رقم ٢٢٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣١٥/٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٣٤٢).

(٣). أخرجه البخاري (٥٨/٣ رقم ٢٠٧٩)، ومسلم (١١٦٤/٣ رقم ١٥٣٢).

يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم: أصلواتك هذه التي تصلّيها هي الأمرة لك بأن تحجر علينا، فلا نعبد إلا إلهك، ونترك ما يعبد آبائنا الأقدمون وأسلافنا الأولون، أو أنا لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترضيه أنت، ونترك المعاملات التي تأبأها وإن كنا نحن نرضاها ﴿لَأَنّ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. قال ابن عباس، وميمون بن مهران، وابن جريج، وزيد ابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء.

﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. هذا تल्पف معهم في العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة، يقول لهم: أرايتم أيها المكذبون إن كنت على بينة من ربي، أي على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني إليكم ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. يعني النبوة والرسالة، يعني وعمى عليكم معرفتها، فأبي حيلة لي بكم؟ وهذا كما تقدم عن نوح عَلَيْهِ السَّلَام أنه قال لقومه سواء.

وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُم عَنْهُ﴾، أي لست أمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه، وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هي المردودة الذميمة، كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم، وخطبائهم الجاهلون، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾

وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ [البقرة: ٤٤]. وذكرنا عندها في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه». أي تخرج أمعاؤه من بطنه، «فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك! ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية»^(١). وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾، أي ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾، أي في جميع أحوالي ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، أي عليه أتوكل في سائر الأمور، وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري، وهذا مقام ترغيب، ثم انتقل إلى نوع من الترهيب، فقال: ﴿وَيَنْقُورُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، أي لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

(١). أخرجه البخاري (١٢١/٤ رقم ٣٢٦٧)، ومسلم (٢٢٩٠/٤ رقم ٢٩٨٩).

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، قيل: معناه في الزمان أي ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل الله بهم على كفرهم وعثوهم. وقيل: معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان. وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات. والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم، لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات. ثم مزج الترهيب بالترغيب، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِتُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، أي أفلعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، فإنه من تاب إليه تاب عليه، فإنه رحيم بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها، ودود وهو الحبيب، ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام. ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع، حيث قالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، أي ما نفهمه ولا نتعقله، لأننا لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه، وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ إِذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]. وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، أي مضطهدًا مهجورًا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾، أي: قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ① قَالَ يَكْفُرُونَ أَرَهْطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩١-٩٢]، أي تخافون قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببهم، ولا تخافون جنبه الله، ولا ترعونني لأنني

رسول الله، فصار رهطي أعز عليكم من الله ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾، أي جعلتم جانب الله وراء ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢]، أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه ﴿وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]. وهذا أمر تهديد شديد ووعد أكيد، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩]، أي في الأخرى ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾، أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر ﴿وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]، وهذا كقوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِرِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]. طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه، فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨]، أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختيارًا، وإنما يعودون إليه إن عادوا اضطرارًا مكرهين، وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، ولا يريد أحد أن يزول عنه، ولا محيد لأحد

منه. ولهذا قال: ﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلِّكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّيْنَا
 اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا
 عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي فهو كافينا، وهو العاصم لنا، وإليه
 ملجؤنا في جميع أمرنا، ثم استفتح على قومه، واستنصر ربه عليهم في
 تعجيل ما يستحقونه إليهم، فقال: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ
 وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، أي الحاكمين فدعا عليهم، والله
 لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه، ورسوله
 خالفوه، ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون، وبه مستمسكون
 ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾
 فَآخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [الأعراف: ٩٠-٩١].
 أنهم أخذتهم رجفة، أي رجفت بهم أرضهم، وزلزلت زلزالاً شديداً،
 أزهقت أرواحهم من أجسادها، وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها،
 وأصبحت جثثهم جاثية، لا أرواح فيها، ولا حركات بها، ولا حواس
 لها، وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثلات،
 وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط
 الله عليهم رجفة شديدة، أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخدمت
 الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها
 والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها،
 ويوافق طباقها في سياق قصة الأعراف: أرجفوا نبي الله وأصحابه،
 وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودن في ملتهم راجعين، فقال
 تعالى: ﴿فَآخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]،

فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق، ومتعلق بما تقدمه من السياق، وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم، والاستهزاء والتنقص: ﴿أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا شِئْتُمْ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي جهلوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكتتهم. وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم ﴿عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]. وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّیْ عَلَّمْنِي مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٨].

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقلوله ضعيف، وإنما عمدتهم شيثان؛ أحدهما أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَنْتُقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧]. ولم يقل: أخوهم كما قال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤]. والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة، أو الصيحة. والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]؛ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا، ولما نسبهم إلى القبيلة

ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم. وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة. وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجردة على أن هؤلاء أمة أخرى فليكن تعداد الانتقام بالرجفة، والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن، ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب، وذكر في كل موضع ما يناسب ذلك الخطاب.

وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظِّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

[الشعراء: ١٨٩]. ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب

الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلمت سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله عليهم ترميهم بشرر وشهب من نار، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة

من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيحًا ۖ﴾ [١١] الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَخْسِرُوا ۖ﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢]، ونجى

الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ

ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيحًا ۖ﴾ [١٢] كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ لَمَدٍ

كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴿[هود: ٩٤-٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

مِنْ قَوْمِهِ لَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَسِرُونَ ۖ﴾ [١٣] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا

فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَنوَاهُمْ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٢]. وهذا في مقابلة قولهم: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِكْثَرًا إِذَا لَخِيرُونَ﴾، ثم ذكر تعالى عن نبينهم أنه نعامهم إلى أنفسهم موبخًا ومؤنبًا ومقرعًا، فقال تعالى: ﴿فَنُؤَلِّ عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمُ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣]، أي أعرض عنهم موليًا عن محلثهم بعد هلاكهم قائلًا: ﴿يَ قَوْمُ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، أي قد أديت ما كان واجبا علي من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه، وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك؛ لأن الله لا يهدي من يضل، وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أي أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي لا تقبلون الحق، ولا ترجعون إليه، ولا تلتفتون إليه، فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدافع، ولا يمانع، ولا محيد لأحد أريد به عنه، ولا مناص منه، وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه، عن ابن عباس أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان بعد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. وعن وهب بن منبه أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مات بمكة ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم، والله أعلم^(١).

(١). البداية والنهاية مرجع سابق (١/٤٢٥-٤٤٠)، وانظر: الكامل في التاريخ: علي بن أبي الكرم محمد ابن عبدالكريم الشيباني، ت: عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٥ هـ، (١/١١٩)، وتاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري، =

العبر والعظات المستفادة

١. جميع الرسل كانت مهمتهم الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنهي عن الفساد في الأرض، وإعطاء الناس حقوقهم والإصلاح بحسب القدرة والإمكان، وبدفع المفسد وتقليلها، بأسلوب حسن، فيه تودد وتلطف ورحمة، حتى يكون له القبول والاستجابة والصبر علي ذلك.
٢. أن نقص المكايل والموازين من كبائر الذنوب، وأن ذلك من سرقة أموال الناس. تفضل الله للإنسان بالمال أمانة، فعليه أن يقوم بأداء حق الله فيه، والامتناع عن المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواء وافق حكم الله أو خالفه.
٣. القناعة بما رزق الله وآتاه من النعم، وبحلاله عن حرامه، وبالمكسب المباح القليل عن المكسب الكثير المحرم، مما يزيد البركة والرزق.

= دار الكتب العلمية، بيروت (٩٨/١).

٤. سنة الله في ردع الظالمين، فالعقوبة من جنس العمل، فمن يخس أموال الناس، يريد زيادة ماله، عُوقِبَ بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده.

٥. أهمية الصلاة وأنها مشروعة للأنبياء المتقدمين، وهي من أفضل الأعمال حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فبإقامتها على وجهها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها، تختل أحواله الدينية.

٦. أن عاقبة المكذبين للرسول الهلاك والدمار، وما أكرم الله به أهل التقوى.

٧. أهمية التوبة والإقلاع عن الذنب، وبيان كيفية أن يُعْفَى عنه الله تعالى.

٨. أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئاً منها، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه.



قوم موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَام



نسبهم

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذكره الله بالرسالة والنبوة والإخلاص والتكليم والتقريب، ومنَّ عليه بأن جعل أخاه هارون نبياً.

صفاتهم

هم شعب بني إسرائيل، الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله. وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سلط الله عليهم فرعون هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف، وأردئها، وأدناها.

موقعهم الجغرافي مصر

حياتهم

ذكر الله تعالى موسى وما جرى له مع قومه، وما وقع من فرعون له، ولقومه في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن، وذكر قصته في مواضع متعددة مبسطة، ومتوسطة، ومختصرة.

فقال الله تعالى: ﴿طَسَمَ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِي ۚ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَفُرِيدَ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ١-٦].

يذكر تعالى ملخص القصة، ثم يبسطها بعد هذا، فذكر أنه سبحانه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق، أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، أي تجبر وعتا، وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى. ومع هذا كان ﴿يُذَيِّعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح، أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما كانوا يأترونه عن إبراهيم الخليل، عَلَيْهِ السَّلَام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وذلك، والله أعلم، حين جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء، وعصمة الله لها.

وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون في مجلس مسامرته مع أمرائه وأساورته، وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذرًا من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر.

وعن ابن عباس وابن مسعود، وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بني إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحزاة والسحرة وسألهم عن ذلك، فقال له الكهنة: هذا غلام يولد من بني إسرائيل، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه. فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥]، وهم بنو إسرائيل

﴿وَجَعَلَهُمْ آيَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، أي الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] أي سنجعل الضعيف قويًا، والمقهور قاهرًا، والدليل عزيزًا. وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩].

والمقصود: أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الجبال، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه، أولئك الذباحون من ساعته. وعند أهل الكتاب أنه إنما كان يأمر بذبح الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وفي هذا نظر، بل هو باطل، وإنما وقع هذا بعد بعثة موسى فجعل يقتل الولدان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا نِسَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَأَسْخِئُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥]، ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. فالصحيح: أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان

أولاً حذرًا من وجود موسى عَلَيْهِ السَّلَام. هذا، والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده، وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع، ولا تخالف أقداره: أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتعهده، ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم، والحوّل والقوة والمشية، التي لا مرد لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشوا أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان يليه بنو إسرائيل من الأعمال الشاقة، فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا، وأن يتركوا عامًا، فولد هارون، عَلَيْهِ السَّلَام، في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وولد موسى، عَلَيْهِ السَّلَام، في عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعًا، واحتترزت من أول ما حبلى به، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل، فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتًا، فربطته في حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد، وضعت في ذلك التابوت، فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيَهُ فِي أَكْبُمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىٰكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ **فَالْقِطْعَةُ: ٧** **عَالِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨** **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ۝٩** **القصص: ٧-٩**، هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ اللَّبَالِ يُونَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ **ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ ۚ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩** **النحل: ٦٨-٦٩**.

وليس هو بوحى نبوة، كما زعمه ابن حزم، وغير واحد من المتكلمين، بل الصحيح الأول، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة. قال السهيلي: واسم أم موسى ياوخ وقيل: أياذخت.

والمقصود: أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه، وألقي في خلدها وروعها: أن لا تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبياً مرسلًا، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم، وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل، فمر على دار فرعون **﴿فَالْقِطْعَةُ: ٧﴾** **﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ﴾** **القصص: ٨**، قال الله تعالى: **﴿فِرْعَوْنَ﴾** **القصص: ٨**، قال بعضهم: هذه لام العاقبة. وهو ظاهر إن كان متعلقاً

بقوله: ﴿فَالْقَظَةَ﴾، وأما إن جعل متعلقًا بمضمون الكلام، وهو أن آل فرعون قيصوا لالتقاطه؛ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرًا﴾، صارت اللام معللة لغيرها، والله أعلم. ويقوي هذا التفسير الثاني قوله: ﴿إِنْ فِرْعَوْنُ وَهَنَنَّ﴾ [القصص: ٨]، وهو الوزير السوء، وجنودهما المتابعون لهما كانوا خاطئين، أي كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسرون: أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون: آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف. وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل: بل كانت عمته. حكاه السهيلي. فالله أعلم. فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية، فلما رآته ووقع نظرها عليه أحبته حبًّا شديدًا، فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودفعت عنه، وقالت: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾، فقال لها فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا^(١). أي لا حاجة لي به. والبلاء موكل بالمنطق. وقولها: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، وقد أنالها الله ما رجت من النفع، أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه ﴿أَوْ تَتَخَذُ وَلَدًا﴾، وذلك لأنهما تبنياه، لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]

(١). أخرجه الطبري في تفسيره (٥٤٢/١٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢٢٢/٦)، وتفسير = القرطبي (١٩٦/١١).

أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم، أن قويضهم لالتقاطه، من النعمة العظيمة
 بفرعون وجنوده. وعند أهل الكتاب أن الذي التقط موسى وربته
 ابنة فرعون، وليس لامرأته ذكر بالكلية. وهذا من غلطهم على كتاب
 الله ﷻ. قال الله تعالى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَدْرًا إِنْ كَادَتْ
 لَتُنْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
 لِأُخْتِهِ قُصِّيهٖ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا
 عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ
 نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ
 وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٠-١٣]. قال
 ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وأبو عبيدة، والحسن،
 وقتادة، والضحاك، وغيرهم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَدْرًا﴾ أي من
 كل شيء من أمور الدنيا، إلا من أمر موسى ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُنْدِي
 بِهِ﴾ أي لتظهر أمره، وتسأل عنه جهرة. ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾
 أي صبرناها وثبتناها ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾
 [القصص: ١٠-١١]، وهي ابنتها الكبيرة: ﴿قُصِّيهٖ﴾ أي اتبعي أثره،
 واطلبي لي خبره ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ قال مجاهد: عن بعد. وقال
 قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا
 يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]، وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار
 فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة، فلم يقبل ثديًا، ولا أخذ طعامًا،
 فحاروا في أمره، واجتهدوا في ذلك، أي على تغذيته بكل ممكن فلم
 يفعل، كما قال تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ فأرسلوه

مع القوابل والنساء إلى السوق، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته،
 فينماهم وقوف به والناس عكوف عليه، إذ بصرت به أخته، فلم تظهر
 أنها تعرفه، بل قالت: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ [القصص: ١٢]، قال ابن عباس: لما قالت ذلك، قالوا لها:
 ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في صهر الملك،
 ورجاء منفعة. فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه، فلما
 أرضعته التقم ثديها، وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحاً
 شديداً، وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها،
 وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها، فأبت عليها، وقالت:
 إن لي بعلاً وأولاداً، ولست أقدر على هذا، إلا أن ترسله معي. فأرسلته
 معها، وربت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات،
 فرجعت به تحوزة إلى رحلها، وقد جمع الله شمله بشملها، قال الله
 تعالى ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى آثِمِهِ كَمَا نَفَرْنَا مِنْهَا وَلَا تَحْزَنْ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ
 اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣] أي كما وعدناها برده ورسالته، فهذا رده،
 وهو دليل على صدق البشارة برسالته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

وقد امتن الله بهذا على موسى ليلة كلمه، فقال له فيما قال له:
 ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۖ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ٣٧-
 ٣٩]، وذلك أنه لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْفَىٰ﴾ [طه: ٣٩]، قال
 قتادة وغير واحد من السلف: أي تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل،
 وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك،

فيما صنعت بك ولك، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيره ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَّتِ نَفْسًا فَفَجِّنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ وَاسْتَوَىٰ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٤-١٧]، لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده إليها، وإحسانه بذلك، وامتنانه عليها، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، وهو احتكام الخلق والخلق، وهو سن الأربعين، في قول الأكثرين، آتاه الله حكمًا وعلمًا، وهو النبوة والرسالة التي كان بشر بها أمه، حيث قال: ﴿إِنَّا رَأَوُوهَ إِلَٰهًا وَلَٰكِن لَّا نَدْرِي أَهِيَ رَأَيْنَاهُ إِلَّا رَيْبَ شَدِيدٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك، حتى كمل الأجل، وانقضى الأمد، وكان ما كان من كلام الله له، وإكرامه بما أكرمه به.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، والسدي: وذلك نصف النهار. وفي رواية عن ابن عباس: بين العشائين ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي يتضاربان ويتهاوشان ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي إسرائيلي ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي قبطي. قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق ﴿فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥] وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجهة،

وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله، أي من الرضاعة، فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ذلك القبطي، أقبل إليه موسى ﴿فَوَكَرَهُ﴾ قال مجاهد: أي طعنه بجمع كفه. وقال قتادة: بعضا كانت معه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] أي فمات منها. وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه، ومع هذا قال موسى ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ [القصص: ١٥-١٧]، أي من العز والجاه ﴿فَلَن أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١-١٨]. يخبر تعالى: أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً أي من فرعون وملئه، أن يعلموا أن هذا القتل الذي رفع إليه أمره، إنما قتله موسى في نصرته رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم خائفاً يترقب، أي يتلفت. فبينما هو كذلك، إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه، أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، قال له ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي، الذي هو عدو لموسى وللاسرائيلي، فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿قَالَ بِمُوسَى أَتْرِيدُ﴾

أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿[القصص: ١٩]﴾. قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلًا إلى القبطي، اعتقد أنه جاء إليه، لما عنفه قبل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]، فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس، فذهب القبطي فاستعدى فرعون على موسى. وهذا الذي لم يذكره كثير من الناس سواه. ويحتمل أن قاتل هذا هو القبطي، وأنه لما رآه مقبلًا إليه خافه، ورأى من سجيته انتصارًا جيدًا للإسرائيلي، فقال ما قال من باب الظن والفراسة، أن هذا لعله قاتل ذاك القاتل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي، حين استصرخه عليه، ما دله على هذا. والله أعلم.

والمقصود: أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل في طلبه، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب إليه، ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ ساعيًا إليه مشفقًا عليه، فقال: ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾، أي من هذه البلدة، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] أي، فيما أقوله لك. قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، أي فخرج من مدينة مصر من فوره، على وجهه، لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه، قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ٢٢﴾
 ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ

دُونِهِمْ أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٢﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿القصص: ٢٢-٢٤﴾.

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفًا يترقب. أي تيلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها، ولما توجه تلقاء مدين أي اتجه له طريق يذهب فيه ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿القصص: ٢٢﴾، أي عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود. وكذا وقع، وأوصلته إلى مقصود، وأي مقصود ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ﴿القصص: ٢٣﴾ وكانت بئرًا يستقون منها. ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَام، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَام في أحد قولي العلماء. ولما ورد الماء المذكور ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ ﴿القصص: ٢٣﴾، أي تكفكفان غنهما أن تختلط بغنم الناس. وعند أهل الكتاب، أنهن كن سبع بنات. وهذا أيضًا من الغلط. ولعله كان له سبع، ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن. وهذا الجمع ممكن إن كان ذلك محفوظًا، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿القصص: ٢٣﴾، أي لا نقدر على ورد الماء إلا بعد صدور الرعاء، لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبنينا وكبره. قال الله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا

من وردهم، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما، وسقى غنمهما، ثم رد الصخرة كما كانت. قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة. وإنما استقى ذنوبًا واحدًا فكفاهما، ثم تولى إلى الظل. قالوا: وكان ظل شجرة من السمر. وروى ابن جرير عن ابن مسعود، أنه رآها خضراء ترف. ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين، لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فسقطت نعلًا قدميه من الحفاء، وجلس في الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وأنه لمحتاج إلى شق ثمرة. قال عطاء بن السائب: لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، أسمع المرأة.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٥-٢٨].

لما جلس موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في الظل، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] سمعته المرأتان، فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتا ما كان من أمر

موسى عَلَيْهِ السَّلَام، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥]

أي مشي الحرائر. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تستر وجهها بكم درعها ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ صرحت له بهذا، لثلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصيانتها. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥] أي وأخبره خبره، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها، قال له ذلك الشيخ: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] أي خرجت من سلطانهم، فلست في دولتهم.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ، من هو؟ فقيل: هو شعيب عَلَيْهِ السَّلَام. وهذا هو المشهور عند كثيرين. وممن نص عليه الحسن البصري، ومالك بن أنس، وجاء مصرحاً به في حديث، ولكن في إسناده نظر. وصرح طائفة بأن شعيباً عَلَيْهِ السَّلَام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عَلَيْهِ السَّلَام وتزوج بابنته. وروى ابن أبي حاتم وغيره، عن الحسن البصري: أن صاحب موسى عَلَيْهِ السَّلَام هذا اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخي شعيب. وقيل: ابن عمه. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقيل: رجل اسمه يثرون. هكذا هو في كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أي كبيرها وعالمها. قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخي شعيب. زاد ابن عباس: صاحب مدين.

والمقصود: أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره، بشره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها ﴿يَتَابِتْ أَسْتَجِرُّهُ﴾ [القصص: ٢٦]، أي لرعي غنمك. ثم مدحته بأنه قوي أمين. قال عمر، وابن عباس، وشريح القاضي، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وغير واحد: لما قالت ذلك قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كوني من ورائي، فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة، أعلم بها كيف الطريق. قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته: أكرمي مثواه، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَتَابِتْ أَسْتَجِرُّهُ إِبْرَاهِيمَ خَيْرٌ مِنْ أَسْتَجِرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب. رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَٰتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، استدل بهذا جماعة من أصحاب أبي حنيفة رَحِمَهُمُ اللَّهُ على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدین أو الثوبین، ونحو ذلك، أنه يصح، لقوله: ﴿إِحْدَى ابْنَتَي هَٰتَيْنِ﴾. وفي هذا نظر؛ لأن هذه مراوضة لا معاقدة. والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨]. يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ، والله

على مقالتنا سامع وشاهد، ووكيل عليّ وعليك. ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما، وهو العشر سنين كوامل تامة.

وعن سعيد بن جبير، قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت، فسألت ابن عباس، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وعن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «سألت جبريل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما»^(١).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ وَنَقِصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعْنَهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَافِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣]، والمقصود: أن الله سبحانه لما أمر موسى، عَلَيْهِ السَّلَام، بالذهاب إلى فرعون ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(٢٣) وأخى هُروث هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يَصْدُقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ^(٢٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّنَّا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٣-٣٥]، يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله ووكليمه موسى، عَلَيْهِ السَّلَام، في جوابه لربه، ﷻ، حين أمره بالذهاب إلى عدوه، الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي، ولهذا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ

(١). أخرجه الحميدي (٤٦٢/١ رقم ٥٤٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٩٤/٦) رقم ١١٦٣٩.

أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ أَي اجعله معي معيّنًا وردّءًا ووزيرًا يساعديني، ويعينني على أداء رسالتك إليهم، فإنه أفصح مني لسانًا وأبلغ بيانًا. قال الله تعالى، مجيبًا له إلى سؤاله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي برهانا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا. وقيل ببركة آياتنا ﴿أَتَمْنَا وَمَنْ أَتْبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، وقال في سورة طه: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَخْلَعْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْفُوهَا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٤-٢٨]. قيل: إنه أصابه في لسانه لثغة^(١)، ولهذا قال فرعون، قبحه الله، فيما زعم أنه يعيب به الكليم: ﴿أَمَأْنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، أي يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده. ثم قال موسى، ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٢٩-٣٦]، أي قد أجبتك إلى جميع ما سألت، وأعطيناك

(١). ذكر أصحاب السير والتاريخ قصة في سبب هذه اللثغة، فقيل: إنه أصابه في لسانه لثغة؛ بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه، التي كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير، فهم بقتله، فخافت عليه آسية، وقالت: إنه طفل. فاختبره بوضع ثمرة وجمرة بين يديه، فهم بأخذ الثمرة، فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها، فوضعها على لسانه، فأصابه لثغة بسببها. والله أعلم بصحة هذه الحكاية، فكيف بطفل يحمل جمرة بين أصابعه ويصبر على لحيها حتى يرفعها إلى فمه، فهلا رماها قبل أن تحرق فمه!!

الذي طلبت. وهذا من وجاهته عند ربه ﷺ، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه، وهذا جاه عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس، وهم سائرون في طريق الحج: أي أخ أمَّن على أخيه؟ فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران، حين شفع في أخيه أن يكون نبياً يوحى إليه. قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾. وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِيَنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيَنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿[الشعراء: ١٠ - ١٩]. تقدير الكلام: فأتياه فقولا له ذلك، وبلغاه ما أرسلتما به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، ويتركهم يعبدون ربهم، حيث شاءوا، ويتفرغون لتوحيده، ودعائه، والتضرع لديه. فتكبر فرعون في نفسه، وعتا وطغى، ونظر إلى موسى، عَلَيْهِ السَّلَام، بعين الازدراء والتقص، قائلاً له: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِيَنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيَنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ﴾، أي أما أنت الذي ربيناه في منزلنا، وأحسننا إليه، وأنعمنا عليه مدة من الدهر؟ وهذا يدل على أن فرعون الذي بعث إليه هو الذي فر منه، خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذي فر منه مات في مدة مقامه بمدين، وأن الذي بعث إليه فرعون آخر. وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي وقتلت الرجل القبطي، وفررت منا،

وجحدت نعمتنا؟! قال: ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، أي قبل أن يوحى إليّ، وينزل عليّ ﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]، ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به عليه من التربية والإحسان إليه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]، أي وهذه النعمة التي ذكرت، من أنك أحسنت إليّ، وأنا رجل واحد من بني إسرائيل، تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله، واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨]. يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقابلة والمحااجة والمناظرة، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية. وذلك أن فرعون، قبحه الله، أظهر جحد الصانع ﷻ، وزعم أنه الإله ﴿فَحَسَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]، وقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَمْلَأُ مَا عِلِمْتُ لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وهو في هذه المقالة معاند، يعلم أنه عبد مربوب، وأن الله هو الخالق البارئ المصور، الإله الحق، كما قال تعالى: ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، ولهذا قال لموسى، عَلَيْهِ السَّلَام، على سبيل الإنكار لرسالته، والإظهار أنه ما ثم رب أرسله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، لأنهما قالا له: ﴿فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا

إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الشعراء: ١٦] ، فكأنه يقول لهما: ومن رب العالمين، الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟ فأجابه موسى قائلاً: ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٤] ، يعني رب العالمين، خالق هذه السماوات والأرض المشاهدة، وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات، التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق، وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين. قال أي فرعون لمن حوله من أمرائه، ووزرائه، على سبيل التهكم والتقص لما قرره موسى، ﴿ أَلَسْتُمْ عَوْنٌ ﴾ يعني كلامه هذا. قال موسى مخاطباً له ولهم: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٥-٢٦] ، أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه، ولم يحدث من غير محدث، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين. وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] ، ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته، ولا نزع عن ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده، وكفرانه ﴿ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ [الشعراء: ٢٧-٢٨] ، أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة، المسير للأفلاك الدائرة، خالق الظلام والضياء ورب الأرض والسماء، رب الأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر، والكواكب السائرة والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه

والنهار بضياؤه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفي فلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء.

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه، ولم يبق له قول سوى العناد، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته: ﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَ يَدَهُ إِذَا هِيَ بِيضًا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٣]، وهذان هما البرهانا اللذان أيده الله بهما، وهما العصا واليد. وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم، الذي بهر به العقول والأبصار، حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، أي عظيم الشكل، بديع في الضخامة والهول، والمنظر العظيم الفطيع الباهر، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه، أخذه رعب شديد، وخوف عظيم، وهكذا لما أدخل موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، يده في جيبه واستخرجها، أخرجها وهي كفلقة القمر، تتلأأ نوراً يبهز الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى، ومع هذا كله لم يتنفع فرعون، لعنه الله، بشيء من ذلك، بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته، ومن في رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه، من إظهار الله الحق المبين، والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه، وأهل دولته وملته، ولله الحمد والمنة.

وقال تعالى في سورة طه: ﴿فَلَيْتَ سَيْنٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَّى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ﴾

وَأَرَى ﴿طه: ٤٠-٤٦﴾. يقول تعالى مخاطبًا موسى، فيما كلمه به ليلة أوحى إليه، وأنعم بالنبوة عليه، وكلمه منه إليه: قد كنت مشاهدًا لك وأنت في دار فرعون، وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدييري، فلبثت

فيها سنين، ثم جئت على قدر، أي مني لذلك، فوافق ذلك تقديري وتسييري، واصطنعتك لنفسي، أي اصطفتك لنفسي برسالتي وبكلامي: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ ﴿طه: ٤٢﴾ يعني: ولا تفترا في ذكري، إذ قدمتما عليه، ووفدتما إليه؛ فإن ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته، وإهداء النصيحة إليه، وإقامة الحجة عليه. وقد جاء في بعض الأحاديث: «يقول الله تعالى: إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه»^(١)، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، ثم قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّسَانًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿طه: ٤٣-٤٤﴾، وهذا من حلمه تعالى، وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره، وهو إذ ذاك أردى خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعوا إليه بالتي هي أحسن، برفق ولين، ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى، كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ

(١). أخرجه الترمذي (٥/٥٧٠ رقم ٣٥٨٠)، وضعفه.

ظَلَمُوا ﴿الآيَةُ [العنكبوت: ٤٦]﴾. قال الحسن البصري: ﴿فَقُولَا لَهُ، قُولَا لِنَا أَلَعَلَّهٗ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، أعذرا إليه، قولا له: إن لك ربًّا ولك معادًا، وإن بين يديك جنة ونارا. وقال وهب بن منبه: قولا له: إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. وقال يزيد الرقاشي عند هذه الآية: يا من يتحجب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟ ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥]، وذلك أن فرعون كان جبارًا عنيدًا شيطانًا مريدًا، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض، وجاه وجنود وعساكر وسطوة، فهاباه من حيث البشرية، وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر، فثبتهما تعالى، وهو العلي الأعلى، فقال: ﴿قَالَ لَأَنخَافَنَّكَ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِمَا تُبْتَغَانِ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥] ﴿فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿١٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٧-٤٨]، يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون، فيدعوا إلى الله تعالى، أن يعبداه وحده لا شريك له، وأن يرسل معهم بني إسرائيل، ويطلقهم من أسرهم وقهرهم، ولا يعذبهم ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ﴾ وهو البرهان العظيم في العصي واليد ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾، تقييد مفيد بليغ عظيم. ثم تهدداه وتوعدها على التكذيب، فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨]، أي كذب بالحق بقلبه، وتولى عن العمل بقلبه.

وقد ذكر السدي وغيره، أنه لما قدم من بلاد مدين، دخل على أمه وأخيه هارون وهما يتعشيان من طعام فيه الطفيل، وهو اللفت فأكل معهما، ثم قال: يا هارون إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته، فقم معي. فقاما يقصدان باب فرعون، فإذا هو مغلق، فقال موسى للبوابين والحجبة: أعلموه أن رسول الله بالباب. فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به. وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل. ويقال: إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما، فوقفا بين يديه، فدعوا إلى الله، ﷻ، كما أمرهما. وعند أهل الكتاب أن الله قال لموسى، عَلَيْهِ السَّلَام: إن هارون اللاوي -يعني من نسل لاوي بن يعقوب- سيخرج ويتلثاك. وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون، وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات. وقال له: سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب، وأكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر. وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه، فلما دخلا مصر، جمعا شيوخ بني إسرائيل، وذهبا إلى فرعون، فلما بلغاه رسالة الله قال: من هو الله؟ لا أعرفه، ولا أرسل بني إسرائيل.

وقال الله مخبراً عن فرعون:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٥]. يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه أنكر إثبات الصانع تعالى، قائلاً: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴿﴾ أي هو الذي خلق الخلق، وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له، فطابق علمه فيهم على الوجه الذي قدره وعلمه؛ لكمال علمه وقدرته وقدره. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝﴾ [الأعلى: ١-٣]، أي قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۝﴾ [طه: ٥١] يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر، الهادي الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه، فلم عبد الأولون غيره، وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۝﴾ [طه: ٥٢] أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك، ولا يدل على خلاف ما أقول؛ لأنهم جهلة مثلك، وكل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزبر من صغير وكبير، وسيجزئهم على ذلك ربي، ﷻ، ولا يظلم أحدًا مثقال ذرة؛ لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء، ولا ينسى ربي شيئًا. ثم ذكر له عظمة الرب، وقدرته على خلق الأشياء، وجعله الأرض مهادًا، والسماء سقًا محفوظًا، وتسخير السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم، كما قال: ﴿كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ۝﴾ [طه: ٥٤] أي لذوي العقول الصحيحة المستقيمة والفطر القويمة غير السقيمة. فهو تعالى الخالق الرزاق.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۚ﴾ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنِي مِنْ أَرْضِي بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ ۚ ﴿٥٧﴾ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ بِسِحْرِنَا مِثْلَهُ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى ۚ ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضَحًى ۚ ﴿طه: ٥٦-٥٩﴾. يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله، واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى: إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله. ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس، ولهذا قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم، ومجتمع لهم ﴿وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضَحًى﴾ أي من أول النهار، في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى. ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة، لأنه على بصيرة من ربه، ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَيَلَيْكُمُ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَرَئى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوى ۖ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطِرِيقَتِكُمُ الْمُثُلَىٰ ۚ ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۚ ﴿طه: ٦٠-٦٤﴾. يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت

بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء، في فنههم غاية، فجمعوا له من كل بلد، ومن كل مكان، فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم؛ وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠].

وتقدم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السحرة، فوعظهم وزجرهم عن تعاوي السحر الباطل، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه، فقال: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (٦١) ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ [طه: ٦١-٦٢]،

قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم؛ فقاتل يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر. وقاتل منهم يقول: بل هو ساحر. فالله أعلم. وأسروا التناجي بهذا وغيره، ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه: ٦٣] يقولون: إن هذا وأخاه

هارون ساحران، عليمان، مطبقان متقنان لهذه الصناعة، ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما، ويصولا على الملك وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمرأ عليكم بهذه الصناعة ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٤]، وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا

ويتواصوا، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان. كذبت والله الظنون وأخطأت الآراء، أتى يعارض البهتان والسحر والبهتان خوارق العادات، التي أجراها الديان على يدي عبده الكليم ورسوله الكريم، المؤيد بالبرهان الذي يبهر

الأبصار، وتحار فيه العقول والأذهان. وقولهم: ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي جميع ما عندكم، ﴿ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾ أي جملة واحدة. ثم حض بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام؛ لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِهِ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥-٦٩]. لما اصطف السحرة ووقف موسى وهارون، عَلَيْهِمَا السَّلَام، تجاههم، قالوا له: إما أن تلقي قبلنا، وإما أن نلقي قبلك. قال: بل ألقوا أنتم. وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً، يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها، وإنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيهم، وهم يقولون: ﴿فَالْقُوا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا يَعْزُو فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]. قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَىٰ﴾ [٦٦] فَأَرْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى [طه: ٦٦-٦٧]، أي خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومحالهم قبل أن يلقي ما في يده، فإنه لا يضع شيئاً قبل أن يؤمر، فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [٦٨] وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِهِ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨-٦٩]، فعند ذلك ألقى موسى عصاه،

وقال: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكْلِمُنِيهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨١-٨٢]. وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٤٥]. ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٤٥]. ﴿فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء: ٤٥]. ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٤٥]. ﴿قَالُوا أَمْ نَآيِبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢]. وذلك أن

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما تقدم وألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم وعنق عظيم، وشكل هائل مزعج، بحيث إن الناس انحازوا منها، وهربوا سراعاً، وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي، فجعلت تلقفه واحداً واحداً، في أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها، ويتعجبون منها. وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم، واطلعوا على أمر لم يكن في خلدتهم ولا بالهم، ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر، ولا شعبذة، ولا محال ولا خيال ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق، الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم، وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين، ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: ﴿قَالُوا أَمْ نَآيِبُ رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٨٧﴾﴾. كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدًا قَالُوا أَمْ نَآيِبُ رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ قَالَ أَمْنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنِ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقْطَعُ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبُكُمْ فِي

جُدُوعِ النَّحْلِ وَلِلْعَلَمَنِ إِنِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَابْقَى ﴿٧٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ قَرَّبَنِي﴾ [طه: ٧٠-٧٦]. فلما سجد السحرة، رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيأ لهم، وتزخرف لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون، وتهديده ووعيده. وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك، ورأى أمرًا بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع، وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله، فقال مخاطبًا للسحرة بحضرة الناس: ﴿عَامَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ أَدْنِي لَكُمْ﴾ أي هلاً شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة ريعتي. ثم تهدد وتوعد، وأبرق وأرعد، وكذب فأبعد، قائلاً: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ عَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنِي لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهديان، بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلهم، من أهل دولته وغيرهم، يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟! ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف.

والمقصود: أن فرعون كذب وافترى، وكفر غاية الكفر في قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩]، وأتى بهتان

يعلمه العالمون، بل العالمون في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ يعني: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه، ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩] أي ليجعلهم مثلاً ونكالاً؛ لثلاثا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته، ولهذا قال: ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾، أي على جذوع النخل؛ لأنها أعلى وأشهر ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١] يعني: في الدنيا قالوا ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه: ٧٢]، أي لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات، والدلائل القاطعات، ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ قيل: معطوف. وقيل: قسم ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]، أي فافعل ما قدرت عليه ﴿إِنَّمَا يَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]، أي إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة، صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتبعنا رسله: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]، أي وثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب، وأبقى أي وأدوم من هذه الدار الفانية. وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَنْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١]، أي ما اجترمناه من المآثم والمحارم أن كنا أول المؤمنين، أي من القبط، بموسى وهارون، عَلَيْهِمَا السَّلَام. وقالوا له أيضاً: ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، أي ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ

عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿[الأعراف: ١٢٦]﴾، أي ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد، والسلطان الشديد، بل الشيطان المريد، وتوفنا مسلمين، وقالوا أيضًا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، يقولون له: فيا لك أن تكون منهم، فكان منهم. ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥]، أي المنازل العالية ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦]، فاحرص أن تكون منهم. فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التي لا تغالب، ولا تمنع، وحكم العلي العظيم بأن فرعون، لعنه الله، من أهل الجحيم، لياشر العذاب الأليم، يصب من فوق رأسه الحميم. ويقال له، على وجه التقريع والتوبيخ، وهو المقبوح المنبوح، الذميم اللئيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

والظاهر من هذه السياقات: أن فرعون، لعنه الله، صلبهم وعذبهم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. قال عبدالله بن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة. ويؤيد هذا قولهم: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ [الأعراف: ١٢٦] ^(١).

العبر والعظات المستفادة

١. لا يغني حذر من قدر، فما قدره الله فهو كائن لا محالة.

(١). البداية والنهاية: ابن كثير، مرجع سابق (٣١/٢-٨٠).

٢. الطغيان مهما تجبر وتكبر نهايته إلى زوال واضمحلال.
٣. الحق في جلالة ووضوحه أقوى من سحر السحرة.
٤. إذا باشر الإيمان القلب هانت أمامه كل قوى الأرض.
٥. الغلبة لأهل الحق، وإن طال الزمن.
٦. إذا غلب الكفر والضلال على قلب أعماه فلم يبصر الشمس في رابعة النهار، ولن ينفع معه تذكير أو جريان المعجزة أمام عينيه.



قوم حزقیل



نسبهم

كانوا من بني إسرائيل، والنبي حزقيل: عن ابن إسحاق قال: إنما سمي حزقيل بن بوزي ابن العجوز، أنها سألت الله الولد، وقد كبرت وعقمت، فوهبه الله لها، فبذلك قيل له ابن العجوز^(١).

موقعهم الجغرافي

عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ: كانت قرية يقال لها: (داوران) قبل واسط^(٢).

صفاتهم الخوف

حياتهم

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللهُ: أصاب ناسًا من بني إسرائيل بلاء وشدة من الزمان، فشكوا ما أصابهم، فقالوا: يا ليتنا قد متنا فاسترحنا مما نحن فيه. فأوحى الله إلى حزقيل: إن قومك صاحوا من البلاء، وزعموا أنهم ودوا لو ماتوا فاستراحوا، وأي راحة لهم في الموت، أيطنون أني لا أقدر على أن أبعثهم بعد الموت؟ فانطلق إلى جبانة كذا كذا، فإن فيها أربعة آلاف. قال وهب: وهم الذين قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ فقم فيهم فنادهم، وكانت عظامهم قد تفرقت فرقتها الطير والسباع، فنادها حزقيل، فقال: يا أيها العظام النخرة، إن الله عز وجل يأمرك أن تجتمعي. فاجتمع عظام كل إنسان منهم معًا، ثم نادى ثانية حزقيل، فقال: أيها العظام إن الله يأمرك

(١). انظر: تاريخ الطبري (٢٧١/١-٢٧٣).

(٢). انظر: عود على بدء في جيلة اليهود (٢٣٦/٤/١).

أن تكتسي اللحم. فاكست اللحم، وبعد اللحم جلدًا، فكانت أجسادًا، ثم نادى حزقييل الثالثة، فقال: أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن تعودى أجسادك. فقاموا بإذن الله، وكبروا تكبيرة واحدة.

وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ كانت قرية يقال لها: داوردان قبل واسط، فوقع بها الطاعون، فهرب عامة أهلها، فزلوا ناحية منها، فهلك أكثر من بقي في القرية، وسلم الآخرون، فلم يمت منهم كثير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا، لو صنعنا كما صنعوا بقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن^(١) فوق في قابل فهربوا، وهم بضعة وثلاثون ألفًا حتى نزلوا ذلك المكان، وهو واد أفحج، فناداهم ملك من أسفل الوادي، وآخر من أعلاه: أن موتوا. فماتوا حتى هلكوا، وبلت أجسادهم، فمر بهم نبي يقال له: هزقييل، فلما رآهم وقف عليهم، فجعل يتفكر فيهم، يلوي شذقه وأصابعه، فأوحى الله إليه: يا هزقييل أترى أن أريك كيف أحْيِيهم؟ قال: نعم. وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم، فقال: نعم. فقيّل له: ناد. فنادى: يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي. فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض، حتى كانت أجسادًا من عظام، ثم أوحى الله: أن ناد يا أيتها العظام، إن الله يأمرك أن

(١). انظر: تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت (٢٧١/١).

تكتسي لحماً. فاكستت لحماً ودمًا، وثيابها التي ماتت فيها وهي عليها، ثم قيل له: ناد. فنادى: يا أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى. فقاموا. وعن مجاهد: أنهم قالوا حين أحيوا: سبحانك ربنا وبحمدك، لا إله إلا أنت. فرجعوا إلى قومهم أحياء، يعرفون أنهم كانوا موتى، سحنة الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوبًا إلا عاد دسمًا مثل الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم. ثم مات حزقيل، ولم تذكر مدته في بني إسرائيل.

وقيل: كانوا قوم حزقيل، فلما أن ماتوا بكى حزقيل، وقال: يا رب، كنت في قوم يعبدونك ويذكرونك، فبقيت وحيدًا! فقال الله: أتحب أن أحييهم؟ قال: نعم. قال: فإني قد جعلت حياتهم إليك. فقال حزقيل: أحيوا بإذن الله تعالى، فعاشوا^(١).

وعن عبدالله بن عامر بن ربيعة: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج إلى الشام، فلما جاء سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبدالرحمن ابن عوف أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا سمعتم به بأرض

(١). انظر: تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت (٢٧١/١-٢٧٢). والكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م (١٨٢/١-١٨٣).

فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»^(١)، فرجع عمر من سرغ.

قال الكلبي ومقاتل والضحاك: إنما فروا من الجهاد، وذلك أن ملكًا من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم، فعسكروا ثم جنبوا وكرهوا الموت، فاعتلوا وقالوا للملكهم: إن الأرض التي تأتيها بها الوباء، فلا تأتيها حتى ينقطع منها الوباء، فأرسل الله عليهم الموت، فخرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، فلما رأى الملك ذلك قال: اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك، فأرهم آية في أنفسهم، حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك، فلما خرجوا قال لهم الله تعالى: (موتوا)، عقوبة لهم، فماتوا جميعًا، وماتت دوابهم كموت رجل واحد، فأتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا، وأروحت أجسادهم، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع، وتركوهم فيها^(٢).

قال القاضي أبو محمد: وهذا القصص كله لين الأسانيد، وإنما اللازم من الآية: أن الله تعالى أخبر نبيه محمدًا ﷺ أخبارًا في عبارة التنبيه والتوقيف، عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارًا من

(١). أخرجه البخاري (١٧٥/٤) ومسلم (٣٤٧٣)، ومسلم (١٧٣٧/٤) رقم (٢٢١٨).

(٢). انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي): محي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (٢٩٣/١ - ٢٩٤).

الموت، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم، ليروا هم وكل من خلف بعدهم: أن الإماتة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا غترار مغتر، وجعل الله تعالى هذه الآية مقدمة بين يدي أمره المؤمنين من أمة محمد بالجهاد. هذا قول الطبري، وهو ظاهر رصف الآية، ولموردي القصص في هذه القصة زيادات اختصرتها لضعفها^(١).

فأتت على ذلك مدة، وقد بليت أجسادهم، وعريت عظامهم، فمر عليهم نبي يقال له حزقيل بن بودى، ثالث خلفاء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، وذلك أن القيم بأمر بني إسرائيل كان بعد موسى يوشع بن نون، ثم كالب بن يوقنا ثم حزقيل، وكان يقال له ابن العجوز، لأن أمه كانت عجوزاً، فسألت الله الولد بعد ما كبرت وعقمت، فوهبه الله تعالى لها، قال الحسن ومقاتل: هو ذو الكفل، وسمي حزقيل ذا الكفل، لأنه تكفل بسبعين نبياً، وأنجاهم من القتل، فلما مر حزقيل على أولئك الموتى، وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم متعجباً، فأوحى الله تعالى إليه: تريد أن أريك آية؟ قال نعم: فأحياهم الله وقيل: دعا حزقيل ربه أن يحييهم فأحياهم.

وقال مقاتل والكلبي: هم كانوا قوم حزقيل أحياهم الله بعد ثمانية أيام، وذلك أنه لما أصابهم ذلك خرج حزقيل في طلبهم فوجدهم موتى

(١). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ (١/٣٢٨).

فبكى، وقال: يا رب كنت في قوم يحمدونك ويسبحونك ويقدسونك ويكبرونك ويهللونك، فبقيت وحيداً لا قوم لي، فأوحى الله تعالى إليه: أني جعلت حياتهم إليك، قال حزقييل: احيوا بإذن الله فعاشوا.

قال مجاهد: إنهم قالوا حين أحيوا: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لا إله إلا أنت. فرجعوا إلى قومهم وعاشوا دهرًا طويلاً، وسحنة الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوباً إلا عاد دسماً مثل الكفن، حتى ماتوا لأجالهم التي كتبت لهم.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وإنها لتوجد اليوم في ذلك السبط من اليهود تلك الريح، قال قتادة: مقتهم الله على فرارهم من الموت، فأماتهم عقوبة لهم، ثم بعثوا ليستوفوا مدة آجالهم، ولو جاءت آجالهم ما بعثوا، فذلك قوله تعالى: ﴿الْم تَر﴾، أي ألم تعلم بإعلامي إياك، وهو من رؤية القلب. ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بعد موتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قيل هو على العموم في حق الكافة في الدنيا، وقيل على الخصوص في حق المؤمنين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، أما الكفار فلم يشكروا، وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر^(١).

(١). انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي): محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (٢٩٣/١ - ٢٩٤). ونهاية الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبدالدايم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق =

العبر والعظات المستفادة

١. قدرة الله في الموت والحياة.
٢. استجابة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِّلدُّعَاءِ ومعرفته بخفايا النفوس.
٣. العقاب للمكذبين على الله واعتقادهم بنجاتهم من الموت
يبين عظمة رب العالمين.
٤. الموت لمن يخاف من الموت هو النتيجة للمتكبرين
والجاحدين لنعم الله.



قوم إلياس عليه السلام



نسبهم

قال ابن إسحاق في المبتدأ: هو ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار ابن هارون أخي موسى بن عمران. وقال ابن عسكر: حكى القتيبي: أنه من سبط يوشع. وقال وهب: إنه عُمَرُ كما عُمِرَ الخضر. وعن ابن مسعود: أن إلياس هو إدريس.

وإلياس بهزة قطع: اسم عبراني، وقد زيد في آخره ياء ونون، في قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ﴾ [الصفافات: ١٣٠]، كما قالوا في إدريس: (إدراسين)^(١).

موقعهم الجغرافي

ذكر ابن كثير: أن إرساله كان إلى أهل بعلبك غربي دمشق^(٢).

صفاتهم

التجبر، الكبر، القتل.

حياتهم

أرسله الله إلى أهل بعلبك، فدعاهم إلى الله ﷻ، وأن يتركوا عبادة صنم لهم، كانوا يسمونه بعلًا، ولهذا قال: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَنْتُمْ قَوْمٌ﴾ [١٢٤] ﴿أَنْدَعُونَ بَعْلًا وِتَدْرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ﴾

(١). انظر: الإتيان في علوم القرآن: عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م (٧٦/٤)، معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م (٥/٢).

(٢). انظر: البداية والنهاية: ابن كثير، مرجع سابق (٣٩٣/١).

عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَبْنَاكَ بِحُزْنِ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

[الصفات: ١٣٢-١٢٤]، فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله، فيقال: إنه هرب منهم، واختفى عنهم. وتوعدهم الله بالعذاب في الدنيا والآخرة إلا من آمن منهم، وأبقينا له ذكرًا حسنًا له في العالمين، فلا يذكر إلا بخير. وما ذكره وهب بن منبه وغيره: أنه لما دعا ربه ﷻ أن يقبضه إليه لما كذبوه وأذوه، جاءته دابة لونها لون النار فركبها، فجعل الله له ريشًا وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وصار ملكيًا بشريًا سماويًا أرضيًا^(١).

ثم أوحى الله تعالى إلى إلياس عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّكَ قَدْ أَهْلَكْتَ كَثِيرًا مِنَ الْخَلْقِ، مِمَّنْ لَمْ يَعْصِ سِوَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالْدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ وَالْهَوَآءِ وَالشَّجَرِ بِحَسْبِ الْمَطَرِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَيَزْعُمُونَ وَاللَّهِ أَعْلَمُ أَنَّ إِلْيَاسَ قَالَ: يَا رَبِّ دَعْنِي أَكُنْ الَّذِي أَدْعُو لَهُمْ، وَآتِيهِمْ بِالْفَرْجِ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ الَّذِي أَصَابَهُمْ، لَعَلَّهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا، وَيَنْزِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِكَ. قِيلَ لَهُ: نَعَمْ. فَجَاءَ إِلْيَاسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ قَدْ هَلَكْتُمْ جَوْعًا وَجَهْدًا، وَهَلَكْتَ الْبَهَائِمُ وَالْدَّوَابُّ وَالطَّيْرِ وَالْهَوَآءُ وَالشَّجَرُ بِخَطَايَاكُمْ، وَإِنَّكُمْ عَلَى بَاطِلٍ وَغُرُورٍ.

فَإِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ أَنْ تَعْلَمُوا ذَلِكَ فَاخْرُجُوا بِأَصْنَامِكُمْ هَذِهِ، فَإِنْ اسْتَجَابَتْ لَكُمْ فَذَلِكَ كَمَا تَقُولُونَ، وَإِنْ هِيَ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ عَلَى

(١). انظر: عود على بدأ في جيلة اليهود: اللواء الركن (م) السيد يوسف بن عبد الله جل الليل، تقرير ساحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، مكتبة التوبة، الرياض، (١/٢٤٠).

باطل، فنزعتم، ودعوت الله ﷻ، ففرّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء. قالوا: أنصفت. فخرجوا بأوثانهم فدعوها فلم تستجب لهم، ولم تفرّج عنهم ما كانوا فيه من البلاء. ثم قالوا لإلياس: يا إلياس، إن الله قد أهلكنا، فادع الله لنا. فدعا الله تعالى لهم ومعه اليسع بالفرج ممّا هم فيه وأن يسقوا، فخرجت سحابة مثل التّرس على ظهر البحر، وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم، وطبّقت الآفاق، ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر فأغاثهم، وحييت بلادهم.

فلما كشف الله تعالى عنهم الضّرّ نقضوا العهد، ولم ينزعوا عن كفرهم، ولم يقلعوا عن ضلالتهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه. فلما رأى إلياس عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك دعا الله تعالى أن يريحه منهم؛ فقبل له - كما يزعمون -: انظر يوم كذا وكذا، فاخرج فيه إلى موضع كذا، فما جاءك من شيء فاركبه ولا تهبه. فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب، حتى إذا كانا بالموضع الذي أمر إلياس به، أقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه، فوثب عليه إلياس، فانطلق الفرس به، فناداه اليسع، يا إلياس: ما تأمرني؟ فقذف إليه إلياس بكسائي من الجوّ الأعلى، وكان ذلك علامة استخلافه إيّاه على بنى إسرائيل، فكان ذلك آخر العهد به. ورفع الله ﷻ إلياس من بين أظهرهم، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وكساه الرّيش، فكان إنسيّاً ملكيّاً أرضيّاً سماويّاً، وسلّط الله على آجاب الملك وقومه عدوّاً لهم، فقصدهم من حيث لم يشعروا به حتى رهقهم،

فقتل آجاب وامراته أرايل في بستان مزدكى، فلم تزل جيفتاها ملقاتين في تلك الجنية، حتى بليت لحومهما، ورمّت عظامهما^(١).

العبر والعظات المستفادة

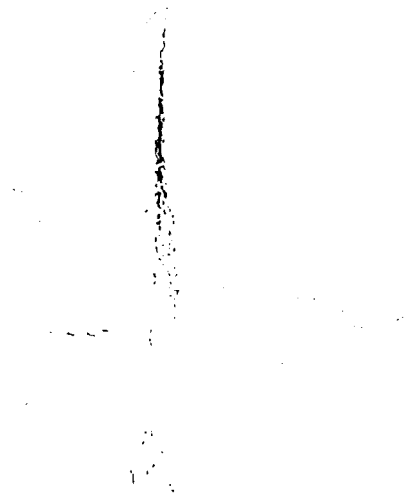
قصة النبي إلياس وقومه مثل قصص القرآن الكريم، لم تذكر بقصد الإخبار والقصّ التاريخي، وإنما بقصد الاعتبار والاعتاظ، والتحذير مما وقع على الأمم والأقوام السابقين، الذين خالفوا شرع الله، وأعرضوا عن الهدى الذي جاءتهم به الرسل والأنبياء. وعلى الجملة، يستفاد من قصة إلياس عَلَيْهِ السَّلَام العبر الآتية:

١. الدعوة إلى التمسك بعبادة الله الواحد الأحد، ونبذ ما سواه من المعبودين، سواء أكانوا حجراً أم بشراً.
٢. إنذار المشركين: أن العذاب آتيهم لا محال، إن لم يأتهم عاجلاً، فهو بالتأكيد آتيهم أجلاً.
٣. سنة الله في مواعدة المعرضين عن ذكره.



(١). انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد البكري، شهاب الدين النوري، مرجع سابق (٢٦/١٤-٢٨). قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في البداية والنهاية (٣٣٨/١): ففي هذا نظر، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل الظاهر أن صحتها بعيدة، والله أعلم.

قوم حنظلة عَلَيْهِ السَّلَام
(أصحاب الرس)



نسبهم

من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وهم قبيلتان، يقال لإحدهما: أدمان، وللأخرى: يامن، وقيل: رعويل، وذلك باليمن^(١). وقد ذكرت هذه القبائل في التوراة، وكل يرجع إلى ولد سام بن نوح. من بني أرم بن سام، وهو من ولده عوص بن أرم، ومن ولده عابر بن أرم، ومن ولده ماش بن أرم^(٢). وقيل كانوا من بني إسرائيل.

موقعهم الجغرافي

اختلف في أصحاب الرس، فقيل: هم من بقية ثمود. وقيل: من أهل اليمامة. وقيل: من أهل أنطاكية. ذكر الهمداني الهي بلدة منحرفة ما بين بيحان ومأرب والجوف، فنجران فالعقيق فالدهناء، فراجعا إلى حضرموت^(٣).

صفاتهم الكبر

حياتهم

قال ابن عباس: سألت كعبًا عن أصحاب الرس، فقال: صاحب يس، الذي قال: ﴿يَقُومُوا لِلْمَرْسَلَاتِ﴾ [يس: ٢٠]، قتله قومه ورسوه في بئر لهم، يقال لها: الرس. طرحوه فيها. وكذا قال مقاتل والسدي: هم أصحاب قصة (يس) أهل أنطاكية، والرس: بئر بأنطاكية،

(١). مروج الذهب: المسعودي (٢١/١).

(٢). انظر: مروج الذهب (١٩٠/١).

(٣). انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١٢٧٥/١)، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي، دار الساقبي (٣٤٨/١).

قتلوا فيها حبيبا النجار، (مؤمن آل يس)، فنسبوا إليها. وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هم قوم كانوا يعبدون شجرة صنوبر، فدعا عليهم نبیهم، وكان من ولد يهوذا، فيست الشجرة، فقتلوه ورسوه في البئر، فأظلمت سحابة سوداء فأحرقتهم. وقال ابن عباس: هم قوم بأذريجان قتلوا أنبياء، فجفت أشجارهم وزروعهم، فماتوا جوعا وعطشا. وقال وهب بن منبه: كانوا أهل بئر، يقعدون عليها وأصحاب مواشي، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيبا، فكذبوه وآذوه، وتماذوا على كفرهم وطغيانهم، فبينما هم حول البئر في منازلهم، انهارت بهم وبديارهم، فحسف الله بهم، فهلكوا جميعا. وقال قتادة: أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمتان، أرسل الله إليهما شعيبا، فكذبوه، فعذبهما الله بعذابين. قال قتادة: والرس قرية بفلج اليمامة. وقال الكلبي: أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبيا فأكلوه السحق. ذكره وهم أول من عمل نساؤهم الماوردي، وقيل: هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد، وحرقوا فيها المؤمنين، وقيل: هم بقايا من قوم ثمود، وأن الرس البئر المذكورة في الحج في قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥].

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، أي أمما لا يعلمهم إلا الله، بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس. وعن الربيع بن خثيم اشتكى، فقيل له: ألا تتداوى، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمر به؟ قال: لقد هممت بذلك، ثم فكرت فيما بيني وبين نفسي، فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرا، كانوا أكثر وأشد حرصا على

جميع المال، فكان فيهم أطباء، فلا الناعت منهم بقي، ولا المنعوت. فأبى أن يتداوى، فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

وذكر عن ابن عباس أنه قال: أصحاب الرس أنهم أهل قرية من قرى ثمود.

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر في أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق: أن أصحاب الرس كانوا بحضور، فبعث الله إليهم نبيًا، يقال له: حنظلة بن صفوان، فكذبوه وقتلوه، فسار عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح بولده من الرس، فنزل الأحقاف، وأهلك الله أصحاب الرس، وانتشروا في اليمن كلها، وفشوا مع ذلك في الأرض كلها حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح دمشق، وبنى مدينتها، وسماها جيرون، وهي إرم ذات العماد، وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق، فبعث الله هود ابن عبد الله بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد إلى عاد، يعني أولاد عاد بالأحقاف، فكذبوه، وأهلكهم الله عز وجل، فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة، فالله أعلم^(٢).

(١). انظر: تفسير القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، (٣٢/١٣).

(٢). انظر: البداية والنهاية: ابن كثير (٢٦٢/١).

العبر والعظات المستفادة

قصة أصحاب الرس مع رسولهم من قصص القرآن، التي بها عبر ودروس منها:

١. الدعوة بكل الطرق والوسائل للإصلاح والتقويم للتوحيد والعقيدة السليمة.
٢. جحود ونكران النعم بالرغم من طلبهم لها.
٣. استجابة الله لجميع طلبات القوم، كي لا يكون لهم حجة، لكن المكذبين لا يصدقون قولاً.
٤. عدالة رب العالمين، ونهاية الظالمين.



Follow Us



obeikn reader



obeikanpub



القسم الثاني

الأنبياء و أقوامهم الصالحون

- قوم يوسف
- قوم يونس
- قوم داود و شمويل
- قوم سليمان
- قوم عيسى

قوم يوسف عليه السلام



نسبهم

ينسبون إلى بني إسرائيل.

موقعهم الجغرافي

مصر.

صفاتهم غلب عليهم الشرك والجهالة.

حياتهم

رأى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن أحد عشر كوكبًا، وهم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر، هما عبارة عن أبويه، قد سجدوا له، فهاله ذلك، فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها، وأن لا يقصها على إخوته، كيلا يحسدوه، ويبغوا له الغوائل، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر؛ ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾، أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها ﴿يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾، أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، أي يفهمك من معاني الكلام، وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك ﴿وَيُؤْتِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، أي بالوحي إليك ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾، أي بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾، أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة، كما أعطاهما أباك يعقوب وجدك إسحاق ووالد جدك إبراهيم الخليل ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

ووقع ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ما قال الله عنه وما جرى له من بلاء شديد، فحسده إخوته وألقوه في غيابة الجب، وادعوا أن الذئب أكله، وحجم المصيبة التي أصابت والده نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصبره على ما وقع عليه من بلاء، وما وقع من بيع يوسف بثمان بخس، وتقلبه في أودية البلاء، حتى صار في بيت الملك، وتعرض لفتنة امرأة العزيز، وما جرى له من فتنة مهلكة، لولا عصمة الله له، ثم تعرضه لمحنة الحبس، وما جرى له فيها، ثم تم التمكين له في الأرض.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]، أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم، ومع هذا لا يغيره تعالى لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، والقدر السابق، والرحمة بأرض مصر بما يجري الله على يدي هذا الغلام، الذي يدخلها في صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور، وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم، بما لا يحد ولا يوصف. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي وكما قيضنا هذا العزيز، وامراته يحسنان إليه ويعتنيان به، مكننا له في أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، أي فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً، وأموراً لا يهتدي إليها العباد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢١-٢٢].

والذي يجب أن يعتقد أن الله تعالى عصمه، وبرأه ونزّهه عن الفاحشة، وحماه عنها وصانه منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢٤) وَأَسْبَقَ **الْبَابُ** ﴿[يوسف: ٢٤-٢٥].

يذكر تعالى عن العزيز وامراته أنهم بدا لهم، أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت، ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية، وأخمد لأمرها، وليظهر وأنه راودها عن نفسها، فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً، وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾، كان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما، فلما رأيا يوسف في السجن، أعجبهما سمته وهديه ودله وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، وقالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]. فأخبرهما أنه عليم بتعبيرهما خبير بأمرهما. و ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِ بِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]، قيل: معناه مهما رأيتما من حلم، فإنني أعبره لكما قبل وقوعه، فيكون كما أقول.

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياي، لأنني مؤمن به، موحد له، متبع ملة آبائي الكرام: إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿مَا كُنَّا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾، أي بأن هذان لهذا ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾، أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه، ونرشدهم وندلهم عليه،

وهو في فطهرهم مركزوز، وفي جبلتهم مغروز ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

ثم دعاهم إلى التوحيد، وذم عبادة ما سوى الله ﷻ، وصغر أمر الأصنام وحقرها وضعف أمرها. فقال: ﴿يَصْدِجِي السَّجْنِ أَزَابًا مُتَفَرِّقَاتٍ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠]، أي هو المتصرف في خلقه، الفعال لما يريد، الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء ﴿أَمَرَ آلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، أي وحده لا شريك له ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، أي المستقيم والصراط القويم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره، وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما، مما سأل عنه وطلبا منه، ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه.

لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام، وتمايم عقله ورأيه السديد وفهمه، أمر بإحضاره إلى حضرته، ليكون من جملة خاصته، فلما جاءه الرسول بذلك أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَوِي بِذِي اسْتِخْلَاصٍ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ٥٧﴾

[يوسف: ٥٤-٥٧]، أي أجعله من خاصتي، ومن أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي، فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أي ذو مكانة وأمانة ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٥٥]. طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سني الخصب، لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك أنه حفيظ، أي قوي على حفظ ما لديه، أمين عليه عليم بضبط الأشياء، وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، أي بعد السجن والضيق والحصار صار مطلق الركاب بديار مصر ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، أي أين شاء حل منها مكرماً محموداً معظمًا ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، أي هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن، مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ [يوسف: ٥٧].

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الديار المصرية يمتارون طعامًا، وذلك بعد إتيان سني الجذب وعمومها على سائر البلاد والعباد، وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينًا ودنيا، فلما دخلوا عليه عرفهم، ولم يعرفوه، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون. ثم لما رأى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع عرف أن هذه الدار لا يقر بها من قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فإن، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه وهو خير المسؤولين أن يتوفاه، أي حين يتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين^(١).

فلقد كان الشرك في قوم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان من منهجه في محاربته ما ذكره الله عنه وهو في السجن عندما خاطب المسجونين ودعاهما إلى توحيد الله. فقد كان الشرك سائدًا في مصر، كسائر الأمم القديمة، وقد كان لكل مدينة في مصر يومئذ معبود، لا يشبه ما يجاورها من المدن، وكان لكل مدينة أو مقاطعة صغيرة آلهتها الخاصة، وعبادتها المختلفة، فكان موطن أوزيريس في أبيدوس، وفتاح في منفيس، وآمون في طيبة، وهوروس في أدفو، وهاتور في دندرة، ورع في هليوبوليس، وآتون في هرموبولس، وغيرها كثير هنا وهناك، وكانت مكانة الآلهة

(١). البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مرجع سابق (٤٥٦/١-٥٠٥) بتصرف.

مستمدة من مكانة المدينة أو المقاطعة التي يعبد فيها، وهكذا كانت الآلهة مراتب متفاوتة، تبعاً لتفاوت مراتب المقاطعات السياسية. كما كانت لهم معبودات أخرى: كالشمس، والأسد، وابن آوى، وغير ذلك من الحيوانات.

وقد غاظ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ما شاهده من انحراف شنيع عن عقيدة التوحيد، فلما واثته الفرصة في أثناء وجوده في السجن، صاح في أولئك الناس قائلاً لهم: ﴿يَصْحَجِي السِّجْنَ ءَأَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠-٣٩].

لقد رسم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الكلمات القليلة الناصعة، الحاسمة المنيرة، كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة، كما هز بها كل قوائم الشرك هزاً شديداً عنيفاً ﴿يَصْحَجِي السِّجْنَ ءَأَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. إنه يتخذ منهما صاحبين، ويتحبب إليهما بهذه الصفة المؤنسة، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة، وجسم العقيدة، وهو لا يدعوها إليها دعوة مباشرة، إنما يعرضها قضية موضوعية: ﴿ءَأَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها، ويهزها هزاً شديداً.

إن الفطرة تعرف لها إلهاً واحداً، ففيم إذا تعدد الأرباب؟ إن الذي يستحق أن يكون رباً يعبد ويطاع أمره، ويتبع شرعه، هو الله الواحد القهار، ومتى توحّد الإله، وتقرر سلطانه القاهر في الوجود، فيجب تبعاً لذلك أن يتوحّد الرب وسلطانه القاهر في حياة الناس، وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد، وأنه هو القاهر، ثم يدينوا لغيره، ويخضعوا لأمره، ويتخذوا بذلك من دون الله رباً.

إن الرب لا بد أن يكون إلهاً يملك أمر هذا الكون ويسيره، ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله رباً للناس، يقهرهم بحكمه. والله الواحد القهار، خير من يدين الناس لربوبيته، من أن يدينوا للأرباب المتفرقة الأهواء الجاهلية العمياء، عن رؤية ما وراء المنظور القريب، كالشأن في كل الأرباب إلا الله. وما شقيت البشرية قط، مثل شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم، وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم.

والذي لا شك فيه أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، قد عاش بين قومه الوثنيين يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويبلغهم رسالة ربه، وينصح لله تعالى ما استطاع، لكنه لم يتمكن من أن يحقق بينهم كل ما يرجوه من دعوته، وظل قومه في شك مما جاء به، كما أشار إلى ذلك مؤمن آل فرعون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]^(١).

(١). منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام: د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، =

العبر والعظات المستفادة

١. لا تدوم الحال على أمر واحد، فقد ينتقل من محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومِنَّة، ومن ذلٍّ إلى عزٍّ، ومن أمنٍ إلى خوفٍ، ومن مُلكٍ إلى رِقٍّ، ومن فُرْقَةٍ وشتاتٍ إلى اجتماعٍ وانضمامٍ، ومن سُرورٍ إلى حُزنٍ، ومن رَخاءٍ إلى جذبٍ، ومن ضيقٍ إلى سَعَةٍ.
٢. العدلُ مطلوبٌ في جميعِ الأمور الصغار والكبار، ومن ذلكَ مُعاملة الوالدين للأولاد، فلا بد من التَّسوية بينهم، وعدم إثارة بعضهم على بعض، ومتى حصل ذلك اختلَّ نظامُ الأسرة، ووقع ما يكدر الصفو، ويعكر طعم الحياة.
٣. العبرةُ بالنهاية لا بالبداية، وهكذا كان أمر إخوة يوسف، تَابُوا واستغفروا، وسَمَحَ لهم يعقوب ويوسف، وإذا سَمَحَ العبدُ فاللهُ أولىُّ بذلك وهو خير الراحمين.
٤. إذا ابتلي العبدُ بمواطنِ الرِّبِّيةِ وأماكنِ الفتنَةِ، فينبغي له أن يهرب، لئلا تُدرِكهُ أسبابُ المعصية فيقع ثمَّ يندم.

= عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية،
الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م (٢١٥/١ - ٢١٨).

٥. ما كَانَ عَلَيْهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْجَمَالِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، أَمَّا الظَّاهِرُ فَهُوَ الَّذِي بِسَبَبِهِ حَصَلَ لَهُ مَا حَصَلَ مِنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَمِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي كُنَّ يَلْمُنَهَا عَلَى فِعْلِهَا، وَأَمَّا جَمَالُ الْبَاطِنِ فَهُوَ الْعِفَّةُ الْعَظِيمَةُ مَعَ وَجُودِ الدَّوَاعِي الْكَثِيرَةِ لَوُقُوعِ الشُّوْءِ مِنْهُ. لَكِنْ مَا قَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ وَقُوَّةِ الْحَقِّ طَرَدَ عَنْهُ الرَّذِيلَةَ، وَجَعَلَهُ بَعِيدًا عَنِ الشُّوْءِ، وَهَذَا مَا جَعَلَهُ عَظِيمًا فِي نُفُوسِهِمْ أَجْمَعِينَ.

٦. اخْتَارَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّجْنَ وَقَدَّمَهُ عَلَى الْوُقُوعِ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ إِذَا كَانَ الْخِيَارُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا عُقُوبَةٌ لَهُ عَاجِلَةٌ، تَوَلَّى إِلَى أَجْرِ عَظِيمٍ فِي الْآخِرَةِ، وَالْأُخْرَى مَعْصِيَةٌ، فَيَنْبَغِي أَلَّا يَتَرَدَّدَ فِي ذَلِكَ، وَيُقَدِّمَ مَا فِيهِ الْخَيْرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ عُقُوبَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ كَانَ السَّجْنُ طَرِيقًا لِيُوسُفَ إِلَى الْعِزَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْفَوْزِ فِي الْآخِرَةِ.

٧. الْعَبْدُ الصَّادِقُ مَعَ رَبِّهِ يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَجَأَ إِلَيْهِ، وَيَحْتَمِي بِحِمَاةِ عِنْدَ وَجُودِ أَسْبَابِ الْمَعْصِيَةِ، وَيَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ حَالَ الرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ.



Follow Us



obeikn reader



obeikanpub

كتبنا الصوتية



storytel



Kitab Sawti
www.kitabsawti.com



زب
www.zab.com

كتبنا الإلكترونية



Google Play



amazon kindle

لخدمات البيع والتوصيل



نون noon



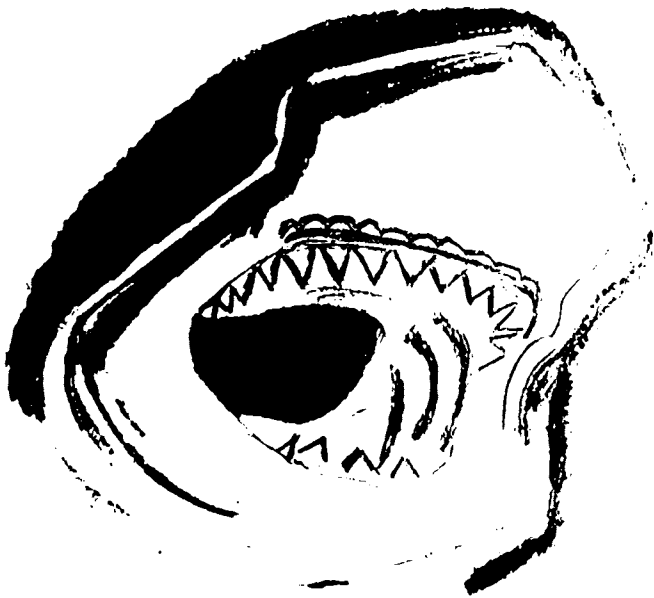
رواق



سوقا

أندى شركات التوصيل

قوم یونس علیہ السلام



نسبهم

منسب النبي يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ . قال الطبري: يونس بن متى، قيل: لم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى ابن مريم، ويونس ابن متى، وهي أمه. وقيل يونس بن سليمان، وجاء لقبه في القرآن (ذا النون) في سورة الأنبياء ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]^(١).

موقعهم الجغرافي

قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى.

صفاتهم شدة الخوف من الله.

حياتهم

كان قوم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ يعبدون الأصنام، فبعثه الله إليهم بالنهي عن عبادتها والأمر بالتوحيد، فأقام فيهم ثلاثاً وثلاثين سنة يدعوهم، فلم يؤمن غير رجلين، وأيس من إيمانهم دعا عليهم، فقبل له: ما أسرع ما دعوت على عبادي. ارجع إليهم فادعهم أربعين يوماً. فدعاهم سبعة وثلاثين يوماً، فلم يجيبوه. فقال لهم: إن العذاب يأتيكم إلى ثلاثة أيام، وآية ذلك: أن ألوانكم تتغير. فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم، فقالوا: قد نزل بكم ما قال يونس، ولم نجرب عليه كذباً، فانظروا فإن بيت فيكم فأمنوا من العذاب، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب يصحبكم. فلما كانت ليلة الأربعين أيقن يونس بنزول العذاب، فخرج من بين أظهرهم، فلما كان الغد تغشاهم العذاب فوق رؤوسهم، خرج عليهم غيم أسود هائل، يدخن دخاناً شديداً، ثم نزل إلى المدينة، فاسودت منه سطوحهم،

(١). انظر: تاريخ الطبري (٣٧٥/١)، الكامل في التاريخ (٢٧٨/١).

فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس فلم يجده، فألهمهم الله التوبة، فأخلصوا النية في ذلك، وقصدوا شيخاً، وقالوا له: قد نزل بنا ما ترى، فما نفعل؟ قال: آمنوا بالله وتوبوا، وقلوا: يا حي يا قيوم، ويا محيي الموتى، يا حي لا إله إلا أنت. فخرجوا من القرية إلى مكان رفيع، فيه براز من الأرض، وفرقوا بين كل دابة وولدها، ثم عجوا إلى الله واستقلوه، وردوا المظالم جميعاً. حتى إن كان أحدهم ليقلع الحجر من بئانه، فيرده إلى صاحبه، فكشف الله عنهم العذاب.

فلما بعث الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أهل نينوى، من أرض الموصل، ودعاهم إلى الله ﷻ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث. فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتضرعوا، وتمسكوا لديه، وبكى الرجال والنساء، والبنون والبنات، والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله العظيم، بحوله وقوته، ورأفته ورحمته، عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [يونس: ٩٨]، أي هلاً وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها. فدل على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال

تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]، وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَعْنَاَ آمَنُوا فَكَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، أي آمنوا بكما لهم. وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة، فينقذهم من العذاب الأخروي، كما أنقذهم من العذاب الدنيوي؟ على قولين، الأظهر من السياق: نعم إن شاء الله. والله أعلم. كما قال تعالى: ﴿لَعْنَاَ آمَنُوا﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٧٧) ﴿فَتَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]، وهذا المتاع إلى حين، لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي. والله أعلم.

والمقصود: أنه عَلَيْهِ السَّلَام لما ذهب مغاضبًا بسبب قومه، ركب سفينة في البحر، فلجت بهم واضطربت، وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون، على ما ذكره المفسرون، قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقتنعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة، ليتخففوا منه، فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقع عليه أيضًا، فشمّر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة الثالثة فوقع عليه أيضًا، لما يريده الله به من الأمر العظيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١٤٠) ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ (١٤١) ﴿فَالْقَمْعُ الْخَوفُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٢]، وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة، ألقى في البحر، وبعث الله، ﷻ، حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى: أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظمًا، فليس لك

برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت، حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حي، فخر لله ساجداً، وقال: يا رب، اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد في مثله.

والمقصود: أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية، ويقتحم به لجج الموج الأجاجي، فسمع تسييح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسييح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السماوات السبع، والأرضين السبع، وما بينها، وما تحت الثرى، فعند ذلك وهنالك قال ما قال بلسان الحال والمقال، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال، الذي يعلم السر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت، حيث قال في كتابه المبين، المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، وإله المرسلين: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنكَّادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]. والظلمات هي: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١١٢﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤]، قيل: معناه لولا أنه سبّح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح، والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه، والرجوع إليه، للبث هنالك إلى يوم القيامة، ولبعث من جوف ذلك الحوت. وقيل: معناه: فلولا أنه كان

من قبل أخذ الحوت له من المسبحين، أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيرًا. ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال لي: «يا غلام، إني معلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»^(١). وعن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت، أن خذ ولا تخدش لحمًا، ولا تكسر عظمًا. فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسًا، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة. قال ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت، فقتله في الساحل، كما قال الله تعالى: ﴿فَنَذَرْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]»^(٢)، وقال رسول الله ﷺ:

- (١). أخرجه الفريابي في القدر (رقم ١٥٦)، والآجري في الشريعة (٨٣٢/٢ رقم ٤١٤)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٩٠/٤ رقم ١٥٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٠/٢) رقم ١٠٤٣، والحاكم (٦٢٣/٣ رقم ٦٣٠٣)، وقال: هذا حديث كبير عال. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٩٦١).
- (٢). أخرجه الطبري في تفسيره (٥١٨/١٨).

«إن يونس النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت، قال: اللَّهُمَّ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فأقبلت الدعوة تحن بالعرش، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قال: نعم. قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء»^(١)، فطرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة، وهياً الله له أروية وحشية، تأكل من خشاش الأرض، فترويه من لبنها، كل عشية وبكرة، حتى نبت. وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره:

فأنبت يقطيناً عليه برحمة من الله لولا الله ألفي ضاحياً^(٢)

(١). أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٤٦٤/٨ رقم ١٣٧١٠)، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (رقم ٣٢)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢٣/٢-٢٤): وهذا غريب أيضاً من هذا الوجه، وي زيد الرقاشي ضعيف، ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم، كما يتقوى ذلك بهذا، والله أعلم.

(٢). البيت ذكره ابن جرير في تفسيره (١١٣/٢١)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٤٨٧/٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٥٥٣/٣)، وأبو حيان في البحر المحيط (١٢٥/٩)، وابن كثير في تفسيره (٤٠/٧)، والسيوطي في الدر المنثور (١٣٠/٧)، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (ص ٤٧)، والتنوخي في الفرج بعد الشدة (٩٢/١).

وقد قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلْنَا﴾ أي ألقيناه بالعراء، وهو المكان القفر، الذي ليس فيه شيء من الأشجار، بل هو عارٍ منها ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٥]، أي ضعيف البدن. ﴿وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّفْطِينٍ﴾ [الصفات: ١٤٦] واليقطين: هو القرع.

قال بعض العلماء: في إنبات القرع عليه حكم جمّة: منها أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيئًا ومطبوخًا، وبقشره وبزره أيضًا، وفيه نفع كثير، وتقوية للدماغ، وغير ذلك. وقد سخر الله تعالى له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها، وترعى في البرية، وتأتيه بكرة وعشية. وهذا من رحمة الله به، ونعمته عليه، وإحسانه إليه، ولهذا قال تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾، أي الكرب والضيق الذي كان فيه ﴿[الأنبياء: ٨٨]﴾، أي وهذا صنيعنا بكل مؤمن دعانا واستجار بنا. وقد قال رسول الله ﷺ: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى»، قال: فقلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]»^(١)، فهو شرط من الله لمن دعاه به^(٢).

(١). أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥١٩/١٨).

(٢). انظر: البداية والنهاية: (٢٧-١٦/٢)، والكامل في التاريخ (٢٨١/١)، تاريخ الطبري (٣٧٥/١).

العبر والعظات المستفادة

قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه فيها من العبر والدروس لأي داعية وكيفية تحليله بصفات معينة، ليصل لأحسن النتائج في الدعوة:

١. التآني وعدم الاستعجال في أخذ القرارات.
٢. الحلم وعدم الغضب.
٣. الداعية إلى الله يجب أن يكون صبوراً، طويل النفس؛ ليصل إلى غايته العظيمة.
٤. الدعاء والتسبيح الوارد في قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، دعاء جامع، شامل للتوحيد، والتسبيح، والاعتراف بفضل الله تعالى على العبد.
٥. بيان كيفية أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَنْسِي عِبَادَهُ الصالحين في الضراء.



قوم داود عَلَيْهِ السَّلَام وشمویل
(طالوت وجالوت)



نَسَبُهُمْ

ينسبون إلى بني إسرائيل، بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. ونبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سليمان بن فحشون بن عوينادب بن ارم ابن جصرون بن قارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن. ونسب طالوت: هو ساود بن بشر بن اينال بن طرون بن بحرون بن أفيح ابن سميداح بن فالح بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

مَوَاقِعُهُمُ الْجُغْرَافِي

قيل: إنهم كانوا في فلسطين^(٢). وذكر أن الموضع الذي قتل فيه جالوت كان بيسان من أرض الغور من بلاد الأردن^(٣).

صِفَاتُهُمُ الْاجْتِمَاعِ، الْإِيمَانُ بِاللَّهِ.

حَيَاتُهُمْ

جمع الله لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ بين الملك والنبوة، وبين خيري الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون في سبط، والنبوة في سبط آخر، فاجتمع في داود هذا وهذا، كما قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ دَجَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [٢٥١:٢٥١]، أي: لولا

(١). انظر: مروج الذهب: المسعودي (١٧/١)، عود على بدء في جيلة اليهود (١/٥/٢٤٦).

(٢). انظر: مروج الذهب: المسعودي (١٧/١).

(٣). انظر: المرجع السابق.

إقامة الملوك حكمًا على الناس لأكل قوي الناس ضعيفهم. ولهذا جاء في بعض الآثار: «السلطان ظل الله في أرضه»^(١)، وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن^(٢).

إن جالوت لما بارز طالوت، فقال له: اخرج إليّ أو أخرج إليك. فندب طالوت الناس، فانتدب داود، فقتل جالوت. قال وهب بن منبه: فمال الناس إلى داود، حتى لم يكن لطالوت ذكر، وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود. وقيل: إن ذلك عن أمر شمويل، حتى قال بعضهم: إنه ولاه قبل الوقعة.

قال ابن جرير: والذي عليه الجمهور: أنه إنما ولي الملك بعد قتل جالوت. والله أعلم. وروى ابن عساكر، عن سعيد بن عبدالعزيز: أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم، وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية. فالله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ الْخَبِيرُونَ ۝١٠ أَنِ امْضِ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ [سبأ: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝٧٩ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحِصِّنَكُمْ مِّنْ

(١). أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٤٩٢/٢ رقم ١٠٢٤)، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٨١/٨ رقم ١٦٦٥٠).

(٢). انظر: الفتح الرباني (١١٦/٢٠).

بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿[الأنبياء: ٧٩-٨٠]، أي: لا تدق المسمار فيقلق، ولا تغلظه فيفصم. قاله مجاهد، وقتادة، والحكم، وعكرمة، وغيرهم. قال الحسن البصري، وقتادة، والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد، حتى كان يفتله بيده، لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة. قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زرد، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح. قال ابن شوذب: كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم. وقد ثبت في الحديث الصحيح: «أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده»^(١).

وقال تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّدْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿[ص: ١٧-٢٠]﴾. قال ابن عباس، ومجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. يعني: ذا قوة في العبادة والعمل الصالح. قال قتادة: أعطي قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام. قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر.

وصح عنه ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى»^(٢)، وقوله:

- (١). أخرجه الطبراني في الصغير (٣٣/١ رقم ١٧)، والأوسط (٢/٢٢ رقم ١١٨٣)، والبيهقي في الأربعين الصغير (رقم ٥٤)،
(٢). أخرجه البخاري (٥٠/٢ رقم ١١٣١)، دون اللفظ الأخير. ووردت عنده في موضع = آخر (٤٠/٣ رقم ١٩٧٧)، ومسلم (٨١٤/٢ رقم ١١٥٩).

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ، يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿[ص: ١٨-١٩]، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوِيٌّ مَعَهُ، وَالطَّيْرُ وَالنَّالَةُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، أي: سبّحي معه. قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ، يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، أي عند آخر النهار وأوله؛ وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدًا، بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه، يقف الطير في الهواء، يرجع بترجيعه، ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه، وتسبح معه، كلما سبّح بكرة وعشيًا، صلوات الله وسلامه عليه، وقال الأوزاعي: حدثني عبدالله بن عامر قال: أعطي داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط؛ حتى إن كان الطير والوحش ليعكف حوله، حتى يموت عطشًا وجوعًا، وحتى إن الأنهار لتقف. وقال وهب بن منبه كان لا يسمعه أحد إلا حجل كهيفة الرقص، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الأذان بمثله، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعًا.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري، وهو يقرأ، فقال: «لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود»^(١).

(١). أخرجه البخاري (١٩٥/٦ رقم ٥٠٤٨)، ومسلم (٥٤٦/١ رقم ٧٩٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَفِضَ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ فَتَسْرَجُ فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْرَجَ دَابَّتُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ»^(١).

وكذلك رواه البخاري منفردًا به عن عبد الله بن محمد عن عبد الرزاق به، ولفظه «خَفِضَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِهِ فَتَسْرَجُ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تَسْرَجَ دَوَابَّهُ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ»^(٢).

والمراد بالقرآن ها هنا الزبور الذي أنزله الله عليه، وأوحاه إليه. وذكر دوابه أشبه أن يكون محفوظًا، فإنه كان ملكًا له أتباع، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب، وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشع، صلوات الله وسلامه عليه. وقد قال الله تَعَالَى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]. وقوله تَعَالَى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ. وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، أي أعطيناه ملكًا عظيمًا وحكمًا نافذًا.

روى ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: أن رجلين تداخيا إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَقَرٍ، ادَّعَى أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ أَنَّهُ اغْتَصَبَهَا مِنْهُ، فَأَنكَرَ الْمَدْعَى عَلَيْهِ، فَأَرْجَأَ أَمْرَهُمَا إِلَى اللَّيْلِ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ، أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَقْتُلَ الْمَدْعَى، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قَالَ لَهُ دَاوُدُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ أَقْتُلَكَ، فَأَنَا قَاتِلُكَ لَا مُحَالَةَ، فَمَا خَبْرُكَ فِيمَا ادَّعَيْتَهُ عَلَيَّ هَذَا؟ قَالَ: وَاللَّهِ

(١). أخرجه البخاري (٨٥/٦ رقم ٤٧١٣).

(٢). أخرجه البخاري (١٦٠/٤ رقم ٣٤١٧).

يا نبي الله إني لمحق فيما ادعيت عليه، ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا فقتلته. فأمر به داود فقتل.

فعظم أمر داود في بني إسرائيل جدًّا، وخضعوا له خضوعًا عظيمًا. قال ابن عباس: فهو قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّبْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾، أي النبوة. ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، قال شريح والشعبي وقتادة وأبو عبدالرحمن السلمي، وغيرهم: ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ الشهود والأيمان. يعنون بذلك البينة على المدعي، واليمين على من أنكر. وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهمه. وقال مجاهد: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. واختاره ابن جرير، وهذا لا ينافي ما روي عن أبي موسى، أنه قول: أما بعد. وقال وهب بن منبه: لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل، أعطي داود سلسلة لفصل القضاء، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس، وكانت من ذهب، فإذا تشاجر الرجلان في حق، فأيهما كان محقًّا نالها، والآخر لا يصل إليها، فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلًا لؤلؤة، فجحدها منه، واتخذ عكازًا وأودعها فيه، فلما حضرا عند السلسلة تناولها المدعي، فلما قيل للآخر: خذها بيدك. عمد إلى العكاز، فأعطاه المدعي، وفيه تلك اللؤلؤة، وقال: اللهم إنك تعلم أنني دفعتها إليه، ثم تناول السلسلة فنالها، فأشكل أمرها على بني إسرائيل، ثم رفعت سريعًا من بينهم. ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَنتَكَ نَبُوءًا الْخَصْمَ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۚ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۚ﴾ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۚ﴾ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَيْنِ نَعَاجُهُ ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَقِلَّ مَا هُمْ وَطَنٌ دَاوُدُ إِنَّمَا فَنَنَّهُ فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ۚ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢١-٢٥].

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف، ها هنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليّات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيرادها في كتابنا قصداً، اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأنني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود. وقال ابن عباس: فرأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام فقرأ السجدة ثم سجد، فسمعتة يقول وهو ساجد، كما حكى الرجل عن كلام الشجرة»^(١).

(١). أخرجه الترمذي (٤٧٢/٢) رقم (٥٧٩)، وابن ماجه (٣٣٤/١) رقم (١٠٥٣)، وحسنه النووي في خلاصة الأحكام (٦٢٣/٢) رقم (٢١٤٦).

قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ، ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾. أي: وإن له يوم القيامة لزلفى، وهي القربة التي يقربه الله بها، ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها، كما ثبت في الحديث: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما ولوا»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدّهم عذاباً: إمام جائر»^(٢).

وعن مالك بن دينار في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥] قال: يقام داود، عَلَيْهِ السَّلَام، يوم القيامة عند ساق العرش، فيقول الله: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم، الذي كنت تمجدني به في الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أردته عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، هذا خطاب من الله تعالى مع داود، والمراد: ولاية الأمور وحكام الناس، وأمرهم بالعدل واتباع الحق

(١). أخرجه مسلم (١٤٥٨/٣) رقم (١٨٢٧).

(٢). أخرجه أحمد (٢٦٤/١٧) رقم (١١١٧٤)، والبيهقي في شرح السنة (٦٥/١٠) رقم (٢٤٧٢)، وقال: حديث حسن غريب.

المنزل من الله، لا ما سواه من الآراء والأهواء، وتوعد من سلك غير ذلك، وحكم بغير ذلك، وقد كان داود، عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو المقتدى به في ذلك الزمان، في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات، حتى إنه كان لا تمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً، كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا أَلَّا دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ^(١).

ذكر المسعودي رَحِمَهُ اللَّهُ: أن وضع الله ﷻ عنهم القتال، وصلاح أمرهم، فخلطوا بعد ذلك، فقالوا لشمويل: ابعث لنا ملكاً يقاتل معنا في سبيل الله، فأمر بتملك طالوت، فملكه الله عليهم، ولم يجمعهم قبل ذلك مثل طالوت، وكان بين خروج موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ببني إسرائيل من مصر إلى أن ملك على بني إسرائيل طالوت خمس مئة سنة واثنان وسبعون سنة وثلاثة أشهر، وكان طالوت دَبَّاعاً يعمل الأدم، فأخبرهم نبيهم شمويل: أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، فقالوا فيه ما أخبر الله ﷻ في كتابه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٤٧: ٢]، وأخبرهم نبيهم أن: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ

(١). انظر: البداية والنهاية: ابن كثير، مرجع سابق (٢/٣٠٠-٣٢٢).

عَالِ مُوسَىٰ وَآلِ هَارُونَ نَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم
 إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾، وكان مدة ما مكث التابوت ببابل
 عشر سنين، فسمعوا عند الفجر حفيف الملائكة تحمل التابوت،
 واشتد سلطان جالوت، وكثرت عساكره، وبلغه انقياد بني إسرائيل إلى
 طالوت، فسار جالوت من فلسطين بأجناس من البربر، وهو جالوت بن
 بانيول بن ريال بن حطان بن فارس، فنزل بساحة بني إسرائيل، فأمر
 شمويل طالوت بالمسير ببني إسرائيل إلى حرب جالوت، فابتلاهم
 الله ﷻ بنهر بين الأردن وفلسطين، وسلط الله عليهم العطش، وقد قص
 الله ذلك في كتابه، ومروا كيف يشربون من النهر، فلغه أهل الرية ولوغ
 الكلاب، فقتلهم طالوت عن آخرهم، ثم فضل من خيارهم ثلاث مئة
 وثلاثة عشر رجلاً فيهم إخوة داود عَلَيْهِ السَّلَام، ولحق داود بإخوته، فتواف
 الجيشان جميعاً، وكانت الحروب بينهما سجالاً، وندب طالوت الناس،
 وجعل لمن يخرج إلى جالوت ثلث ملكه، ويتزوج ابنته، فبرز داود فقتله
 بحجر كان في مَخْلَافِهِ، رماه بمقلع، فخر جالوت ميتاً، وقد أخبر الله ﷻ
 بذلك في كتابه بقوله: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ يَازِدُ اللَّهِ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ
 وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ
 اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو
 فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [٢٥١: ١].^(١)

(١). انظر: مروج الذهب: المسعودي (١٧/١).

العبر والعظات المستفادة

قصة نبي الله داود مع قومه فيها من الدروس والعبر فوائد منيرة، في جوانب كثيرة من الحياة، فهناك دروس علمية، وهناك دروس سياسية، وهناك دروس قضائية، وهناك دروس عسكرية، وهناك دروس اقتصادية، وهناك دروس عامة أخرى.

١. إن قصة انتصار طالوت وجنوده على الطاغية جالوت وجنوده قصة فيها الاعتبار والاستبصار للأمة الإسلامية.

٢. صفات القائد المؤمن الناجح من أسباب انتصاره على الأعداء.

٣. اختيار الجنود الأكفاء من مهام القائد.

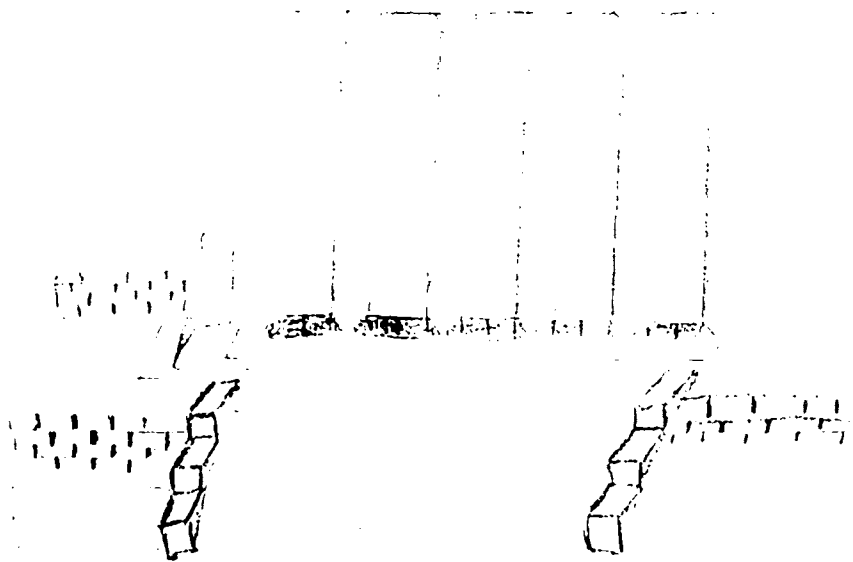
٤. التوحيد واليقين بالله مع التوكل عليه نتيجتها النصر، وهو من الله وحده.

٥. إظهار الله للناس ضعف أي طاغية، عندما تكون نهايته على يد أصغر الجنود.

٦. صفة التواضع ورجاحة العقل، والاعتراف بفضل الآخرين من صفات القادة العظام.

٧. ثبات الفئة القليلة الضعيفة مادياً أمام الفئة الكثيرة القوية مادياً، يعد آية من آيات الله.
٨. إن البقاء والنصر لقوة العقيدة الربانية، وعلى قدر رسوخها في نفوس أصحابها واستقرارها في قلوبهم، ولا بقاء للقوة المادية مهما تجبرت.
٩. دور الصادقين المخلصين الكبير والنافع في إصلاح الأمة الإسلامية وثباتها على دينها وصمودها في وجه الظلم والعدوان.
١٠. أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، ووجوب الحكم بين الناس بالحق.
١١. أن من أسباب الضلال اتباع الهوى عن سبيل الله في كل شيء.
١٢. تسخير نعمة معرفة الصناعات النافعة في نفع الناس وإصلاح عيشتهم، ودفع الضرر عنهم.
١٣. الحرص على العمل والكسب الحلال، والأكل من عمل اليد، دون الانتظار لكسب الآخرين. والسعي لطلب الرزق وكف النفس عن الناس يصلح النفس.

قوم سليمان عَليهِ السَّلَام
(مملكة سبأ)



نسبهم

نسب النبي سليمان، هو: سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سليمان ابن فحشون بن عوينادب بن إرم بن جصرون بن قارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

نسب الملكة بلقيس. قال الطبري: بلقيس، وهي فيما يقول أهل الأنساب: يلمقة ابنة الإشرح. ويقول بعضهم: ابنة أيلي شرح. ويقول بعضهم: ابنة ذي شرح بن ذي جدن بن أيلي شرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان^(١).

موقعهم الجغرافي

كان قوم سليمان في منطقة مأرب الواقعة في سبأ في أراضي اليمن، ويرى علماء الآثار أنَّ حضارة سبأ كانت في مشرق اليمن، وكان ملك سليمان في الشام.

صفاتهم القوة والجماعة.

حياتهم

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، أي ورثه في النبوة والملك. وليس المراد وراثته المال، لأنه قد كان له بنون غيره، فما كان ليخص بالمال دونهم. ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث، ما**

(١). انظر: تاريخ الطبري (٢٨٩/١).

تركنا فهو صدقة»، وفي لفظ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»^(١)، فأخبر الصادق المصدوق: أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم، كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج، لا يخصون بها أقرباءهم، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم. وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنَ الطَّيْرِ﴾، يعني أنه، عَلَيْهِ السَّلَام، كان يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغاتها، ويعبر للناس عن مقاصدها وإراداتها.

وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي من كل ما يحتاج الملك إليه، من العدد، والآلات، والجنود، والجيوش، والجماعات من الجن، والإنس، والطيور، والوحوش، والشياطين السارحات، والعلوم، والفهوم، والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات. ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، أي من باري البريات وخالق الأرض والسموات، كما قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(١٧) حَتَّى إِذَا أَنزَلْنَا عَلَى الْنَمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^(١٨) فَنَبَسَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٧-١٩]. يخبر تعالى

(١). أخرجه البخاري (٧٩/٤ رقم ٣٠٩٣)، ومسلم (١٣٧٧/٣ رقم ١٧٥٧).

عن عبده ونيبه وابن نبيه سليمان بن داود، عليهما الصلاة والسلام، أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير، فالجن والإنس يسرون معه، والطير سائرة معه، تظله بأجنحتها من الحر وغيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة، أي نقباء يردون أوله على آخره، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه، قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ أَخْلُو أَسْكَنَكُمْ لَا يَخْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فأمرت، وحذرت، واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

وفي هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط، لأنه لو كان كذلك لم ينل النمل منه شيء ولا وطاء، لأن البساط كان عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام، والطير من فوق ذلك كله.

والمقصود: أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَام، فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره، وليس كما يقوله بعض الجهالة، من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان، وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها، فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره، إذ قد كان الناس

كلهم يفهمون ذلك، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره، وكان هو يفهمها، لم يكن في هذا أيضًا فائدة يعول عليها، ولهذا قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾، أي ألهمني وأرشدني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه، وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له.

ويذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون، يقومون بما يطلب منهم، ويحضرون عنده بالنبوة، كما هي عادة الجنود مع الملوك، وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره، أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار، يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء، وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه، أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض، فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه، واستعملوه لحاجتهم، فلما تطلبه سليمان عَلَيْهِ السَّلَام ذات يوم، فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّ هَذَا أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، أي ما له أمفقود من ها هنا، أو قد غاب عن بصري، فلا أراه بحضرتي؟ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١] توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه، والمقصود حاصل على كل تقدير. ﴿أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ﴾ [النمل: ٢١]، أي بحجة تنجيه من

هذه الورطة. قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢]، أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة، ثم قدم منها، فقال لسليمان: ﴿فَقَالَ أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، أي اطلعت على ما لم تطلع عليه. ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، أي بخبر صادق.

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُ لَهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم، ابنة ملكهم، لم يخلف غيرها فملكوها عليهم. وذكر الثعلبي وغيره أن قومها ملكوا عليهم بعد أبيها رجلاً، فعم به الفساد فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها، فلما دخلت عليه سقته خمرًا، ثم حزت رأسه ونصبته على بابها، فأقبل الناس عليها وملكوها عليهم. وهي بلقيس. وكان أبوها من أكابر الملوك.

وعن أبي بكره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى، قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(١). وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] يعني سرير مملكتها، كان مزخرفًا بأنواع الجواهر واللائي والذهب والحلي الباهر. ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله، وإضلال الشيطان لهم، وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ

(١). أخرجه البخاري (٦/٨ رقم ٤٤٢٥).

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿[النمل: ٢٥]﴾، أي يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿[النمل: ٢٦]﴾.

أي: له العرش العظيم، الذي لا أعظم منه في المخلوقات. فعند ذلك بعث معه سليمان، عَلَيْهِ السَّلَام، كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله، والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه، ولهذا قال لهم: ﴿الَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، أي: لا تستكبروا عن طاعتي وامثال أوامري. ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ﴿[النمل: ٣١]﴾، أي وأقدموا عليّ سامعين مطيعين، بلا معاودة ولا مراودة، فلما جاءها الكتاب مع الطير، ومن ثم اتخذ الناس البطائق، ولكن أين الثريا من الثرى؟! تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم، عالم بما يقول ويقال له. فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم: أن الهدهد حمل الكتاب، وجاء إلى قصرها، فألقاه إليها، وهي في خلوة لها، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها، فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها وأولي مشورتها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُ إِلَيْكُمْ كَرِيْمٌ﴾ ﴿[النمل: ٢٩]﴾، ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾، ثم قرأته: ﴿وَأَنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿الَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ﴿[النمل: ٣٠-٣١]﴾، ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها، وتأدبت معهم، وخاطبتهم وهم يسمعون: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفَتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾ ﴿[النمل: ٣٢]﴾، تعني: ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿[النمل: ٣٣]﴾، يعنون: لنا قوة وقدرة

على الجلاّد والقتال ومقاومة الأبطال، فإن أردت منا ذلك، فإننا عليه من القادرين، ومع هذا ﴿وَأَلْمَزْ إِلَيْكَ فَأَنْظِرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣]، فبدّلوا لها السمع والطاعة، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة، وفوضوا إليها في ذلك الأمر، لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم، فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، تقول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة، لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلّايّ، ولم تكن الحدة الشديدة والسطوة البليغة إلا عليّ ﴿وَلِإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها، وتحف تبعثها، ولم تعلم أن سليمان، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً، لأنهم كافرون، وهو وجوده عليهم قادرون، ولهذا ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة، كما ذكره المفسرون. ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه، والناس حاضرون يسمعون: ﴿ارْجِعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَهُمْ بِمُجُودٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِمَا وَلَّيْتَهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]، يقول: ارجع بهديتك -التي قدمت بها- إلى مَنْ قد مَنَّ بها، فإن عندي مما قد أنعم الله عليّ وأسداه إلّايّ من الأموال والتحف والرجال، ما هو أضعاف هذا، وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به، وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه. ﴿فَلَنَأَيِّبَهُمْ بِمُجُودٍ لَا

﴿قَبْلَ هُمْ يَأْتِي﴾ [النمل: ٣٧]، أي فلا بعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم، ولآخر جنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم ﴿أَذَلَّةٌ وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]، عليهم الصغار والعار والدمار. فلما بلغهم ذلك عن نبي الله، لم يكن لهم بد من السمع والطاعة، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين، فلما سمع بقدمهم عليه ووفودهم إليه، قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان، ما قصه الله عنه في القرآن: ﴿قَالَ يَأْتِيَانِي أَلْمَلُوا أَيْكُم بِأَتِينِي بِعَرْشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨) قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴿ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٣٨-٤٤] يعني: قبل أن ينقضي مجلس حكمك، وكان -فيما يقال- من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل، وما لهم من الأشغال ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ﴾، أي وإني لذو قوة على إحضاره إليك، وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك. ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾، المشهور أنه آصف بن برخيا، وهو ابن خالة سليمان. ﴿أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، قيل: معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض، ثم يعود إليك. وقيل: قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس. وقيل: قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك. وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته. وهذا أقرب ما قيل. ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾، أي فلما رأى عرش بلقيس مستقرا عند هذه

المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس، في طرفة عين ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ﴾، أي هذا من فضل الله عليّ وفضله على عبده؛ ليختبرهم على الشكر أو خلافه. ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، أي: إنما يعود نفع ذلك عليه. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] أي: غني عن شكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين. ثم أمر سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يغير حلي هذا العرش وينكر لها، ليختبر فهمها وعقلها، ولهذا قال: ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤١) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤١-٤٢]، وهذا من فطنتها وغزارة فهمها، لأنها استبعدت أن يكون عرشها، لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب.

قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٢) ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٢-٤٣]، أي ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله، اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حذاهم على ذلك، وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج، وعمل في ممره ماء، وجعل عليه سقفاً من زجاج، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه، ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقد ذكر الثعلبي

وغيره: أن سليمان لما تزوجها، أقرها على مملكة اليمن وردها إليه، وكان يزورها في كل شهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام، ثم يعود على البساط، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن: غمدان، وسالحين، وبنين، فإله أعلم.

ويذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثم أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، أي رجاء مطيع لله. ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات، وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة. الجياد، وهي المضمرة السراع: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، يعني الشمس وقيل: الخيل. ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنُفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣]، قيل: مسح عراقيها وأعناقها بالسيوف. وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها، وسابق بينها وبين يديه، على القول الآخر. والذي عليه أكثر السلف الأول، فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس. روي هذا عن علي بن أبي طالب وغيره. والذي يقطع به، أنه لم يترك الصلاة عمدًا من غير عذر، اللهم إلا أن يقال: إنه كان سائغًا في شريعتهم تأخير الصلاة لأجل أسباب الجهاد، وعرض الخيل من ذلك. وقد ادعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق: أن هذا كان مشروعًا إذ ذاك، حتى نسخ بصلاة الخوف. قاله الشافعي وغيره. وقال مكحول والأوزاعي: بل هو حكم محكم إلى اليوم، أنه يجوز تأخيرها لعذر القتال الشديد. وقال آخرون: بل كان تأخير النبي ﷺ

صلاة العصر يوم الخندق نسياناً. وعلى هذا فيحمل فعل سليمان، عَلَيْهِ السَّلَامُ، على هذا. والله أعلم. وأما من قال: الضمير في قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] عائد على الخيل، وإنه لم يفته وقت صلاة، وإن المراد بقوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣]، يعني: مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها. فهذا القول اختاره ابن جرير.

وقال بعض العلماء: لما ترك الخيل لله، عوضه الله عنها بما هو خير لها منها، وهو الريح التي كان غدوها شهراً ورواحها شهراً. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

وقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفْثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [ص: ٧٨] فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا [الأنبياء: ٧٨-٧٩]،

وقد ذكر شريح القاضي، وغير واحد من السلف، أن هؤلاء القوم كان لهم كرم فنفثت فيه غنم قوم آخرين، أي رعته بالليل فأكلت شجره بالكلية، فتحاكموا إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته، فلما خرجوا على سليمان قال: بما حكم لكم نبي الله؟ فقالوا: بكذا وكذا. فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم، فيستغلونها نتاجاً ودرّاً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك، ويردوه إلى ما كان عليه، ثم يتسلموا غنمهم. فبلغ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما، إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك. وقالت الصغرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكما إلى داود فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان، فقال: اتئوني بالسكين أشقه نصفين، لكل واحدة منكما نصفه. فقالت الصغرى: لا تفعل، يرحمك الله، هو ابنها. فقضى به لها»^(١)، ولعل كلاً من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم، ولكن ما قاله سليمان أرجح، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه، ومدح بعد ذلك أباه فقال: ﴿وَكَلَّا ءَاثِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝٧٩ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُخَفِّيَكُمْ مِّنْ بَاسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٩-٨٠]، ثم قال: ﴿وَلَسَلَيَمَنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً﴾، أي: وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾^(٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمُ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١-٨٢]، لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح، التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم، ولا كلفة عليه لها. ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ رُحَاءَ حَيْثُ صَابَ﴾ [ص: ٣٦]، أي حيث أراد من أي البلاد. كان له بساط مركب من أخشاب، بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من

(١). أخرجه البخاري (١٥٦/٨ رقم ٦٧٦٩)، ومسلم (١٣٤٤/٣ رقم ١٧٢٠).

الإنس والجان، وغير ذلك من الحيوانات والطيور، فإذا أراد سفرًا أو مستنزهًا، أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط، أمر الريح فدخلت تحته فرفعته، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون، فوضعت في أي مكان شاء، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس، فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر، مسيرة شهر، فيقيم هناك إلى آخر النهار، ثم يروح من آخره، فترده إلى بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَوَارُوحُهَا شَهْرٌ وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ١٢﴾ ﴿١٢﴾ لَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرَبٍ وَنَسْخِلُ وَجْهَانَ الْجَوَابِ وَقُدُورِ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٢-١٣]. قال الحسن البصري: كان يغدو من دمشق، فينزل بإصطخر فيتغدى بها، ويذهب رائجًا منها فيبيت بكابل، وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر، وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر. قلت: قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان، أن إصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديمًا، وكذلك غيرها من بلدان شتى: كتدمر، وبيت المقدس، وباب جيرون، وباب البريد، اللذين بدمشق، على أحد الأقوال. وأما القطر، فهو النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن، أنبعها الله له. قال السدي: ثلاثة أيام فقط، أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنائات وغيرها.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ. وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء، لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته، ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس. ﴿وَتَمَثِّلَ﴾ وهي الصور في الجدران، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم. ﴿وَحَفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ [سبأ: ١٣]، قال ابن عباس: الجفنة كالجوبة من الأرض. وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء، كما قال الأعشى:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية السيح العراقي تفهق

وأما القدور الراسيات، فقال عكرمة: أثافيتها منها. يعني أنهم ثوابت لا يزلن عن أماكنهن. وهكذا قال مجاهد وغير واحد. ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام، والإحسان إلى الخلق من إنس وجان، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ۖ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧-٣٨]. يعني أن منهم من قد سخره في البناء، ومنهم من يأمره بالغوص في الماء، لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللائى، وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك. وقوله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾، أي: قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد، وهي القيود. هذا كله من جملة ما هيا الله وسخر له من الأشياء، التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله. وعن أبي

هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن عذريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﷺ [ص: ٣٥]. فرددته خاسئا»^(١).

وقد ذكر غير واحد من السلف، أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة، سبع مئة بمهور، وثلاث مئة سراري. وقيل بالعكس: ثلاث مئة حرائر وسبع مئة من الإماء. وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرا عظيما جدا.

فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل، فلم تحمل شيئا إلا واحدا ساقطا أحد شقيه». فقال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»^(٢).

وقد كان له، عَلَيْهِ السَّلَام، من أمور الملك، واتساع الدولة، وكثرة الجنود وتنوعها، ما لم يكن لأحد قبله، ولا يعطيه الله أحدا بعده، كما قال: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدق. ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه

(١). أخرجه البخاري (٩٩/١ رقم ٤٦١)، ومسلم (٣٨٤/١ رقم ٥٤١).

(٢). أخرجه البخاري (٢٢/٤ رقم ٢٨١٩)، ومسلم (١٢٧٥/١٢ رقم ١٦٥٤).

من النعم الكاملة العظيمة إليه، قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]، أي أعط من شئت واحرم من شئت، فلا حساب عليك، أي: تصرف في المال كيف شئت، فإن الله قد سوغ لك كل ما تفعله من ذلك، ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبي الملك بخلاف العبد الرسول، فإن من شأنه أن لا يعطي أحدًا ولا يمنع أحدًا إلا بإذن الله له في ذلك.

وقد خير نبينا محمد، صلوات الله وسلامه عليه، بين هذين المقامين، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا. وفي بعض الروايات: أنه استشار جبريل في ذلك، فأشار إليه أن تواضع. فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، صلوات الله وسلامه عليه. وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة، فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة. فله الحمد والمنة.

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان، عَلَيْهِ السَّلَام، من خير الدنيا، نبه على ما أعد له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل، والقربة التي تقربه إليه، والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب، حيث قال تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ﴾ [ص: ٢٥]^(١).

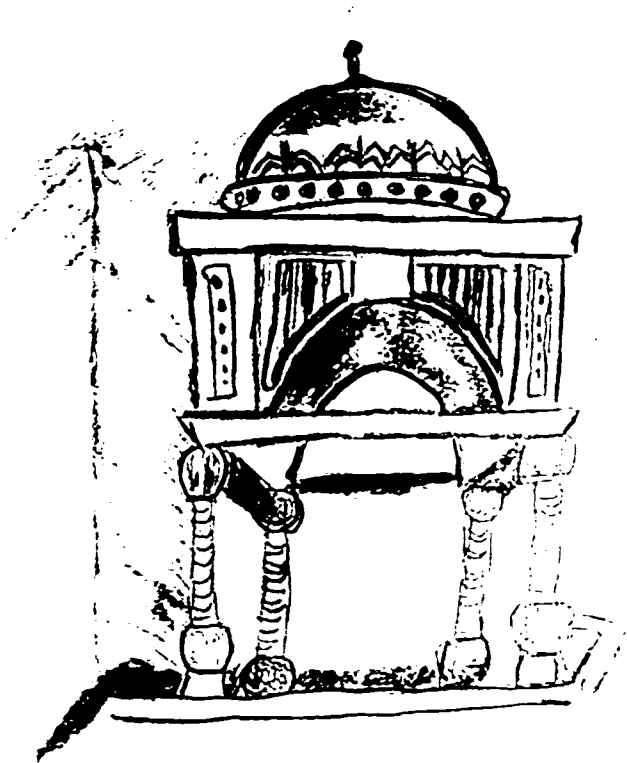
(١). انظر: البداية والنهاية: ابن كثير (٣٢٣/٢-٣٥١)، وتاريخ الطبري (٢٨٩/١-٢٩٢).

العبر والعظات المستفادة

من عظمة القرآن الكريم احتوائه على قصص عظيمة، فيها من الحكمة والمعرفة الشيء الكثير، ومنها قصص سليمان عَلَيْهِ السَّلَام مع قومه، وما تحمل من معان ودروس، تدعو للإعجاب والتفكير، ومنها:

١. الكفر واتباع وسوسه الشيطان من أسباب زوال النعم.
٢. الأمر بالتأمل والتدبر في الأدلة التي خلقها الله، لعلهم يرفعون عن غيهم.
٣. مهمة ولي الأمر تفقد الرعية والجنود ومتابعة الانضباط والطاعة، وإلا أصبحت الأمور فوضى.
٤. قدرة الله وعظمته في إعطاء النعم العظيمة للأنبياء من الملك والحكمة والعلم.
٥. أن كل شيء ينقاد لأمر الله تعالى، ويخضع له حتى الشياطين المتمردة على الله ابتداءً، من الجن والإنس والريح والحيوانات بجميع أنواعها.
٦. إن كل الذي سُحِّر لسليمان هو هبة من الله، ولم يكتسبه سليمان بجده وجهده.
٧. أن الملك لا يساوي شيئاً بالنسبة لملك الله العظيم. كما أنه لا يقارن بما يعطيه الله من ملك لكل مؤمن في الآخرة.
٨. أن قدرة الله في إنطاق كل شيء لا حدود لها.

قوم عيسى عليه السلام



نسبهم

هم النصارى، أتباع نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام.

وصفهم

الضالون منهم ثلاث فرق: فمنهم من قال: إِنَّ عيسى ابن الله، وهؤلاء هم المسمّون بالملكية. ومنهم من قال: إِنَّ عيسى هو الله، نزل وأخذ ابن آدم وعاد، يعني تصوّر بصورة آدم، ثم رجع إلى تعالىه، وهؤلاء يسمّون باليعاقبة. ومنهم من قال: إِنَّ الله في نفسه عبارة عن ثلاثة: عن آب، وهو الروح القدس. وعن أم، وهي مريم. وعن ابن، وهو عيسى، كذا في الإنسان الكامل في باب التوراة^(١). وهم قوم عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، جمع نصران، ويقال: نصراني، وهو الأكثر في الاستعمال، ووجه هذا الاسم أنهم كانوا أنصاراً له. وقيل: هو مأخوذ من الناصرة، وهي القرية التي كان نزلها عيسى عَلَيْهِ السَّلَام^(٢).

حياتهم

النصارى: أمة المسيح عيسى ابن مريم، رسول الله وكلمته عَلَيْهِ السَّلَام. وهو المبعوث حقاً بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَام، المبشر به في التوراة. وكانت له آيات ظاهرة، وبيّنات زاهرة، ودلائل باهرة، مثل إحياء الموتى، وإبراء

(١). انظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي درجوع (١٧٠٠/٢).

(٢). انظر: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين: الإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط١، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م (١٢٢/١).

الأكمه، والأبرص، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه. وذلك حصوله من غير نقطة سابقاً، ونطقه البين من غير تعليم سالف. وجميع الأنبياء بلاغ وحيهم أربعون سنة، وقد أوحى الله تعالى إليه إنطاقاً في المهدي، وأوحى إليه إبلاغاً عند الثلاثين. وكانت مدة دعوته ثلاث سنين، وثلاثة أشهر، وثلاثة أيام^(١).

وليعلم كل مسلم: أن هؤلاء الذين يسمونهم النصارى، ويزعمون أنهم كانوا حواريين للمسيح عَلَيْهِ السَّلَام: كباطرة، ومتى الشرطي، ويوحنا، ويعقوب، ويهوذا الأخساء لم يكونوا قط مؤمنين، فكيف حواريين، بل كانوا كذابين مستخفين بالله تعالى. إما مقرين بالهية المسيح عَلَيْهِ السَّلَام، معتقدين لذلك، غالين فيه: كغلو السبئية وسائر فرق الغالية في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكقول الخطابية بالهية أبي الخطاب، وأصحاب الحلاج بالهية الحلاج، وسائر كفار الباطنية، عليهم اللعنة من الله والغضب، وإما مدسوسين من قبل اليهود، كما تزعم اليهود، لإفساد دين أتباع المسيح عَلَيْهِ السَّلَام وإضلالهم، كانتصاب عبدالله بن سبأ الحميري، والمختار بن أبي عبيد، وأبي عبدالله العجاني، وأبي زكريا الخياط، وعلي النجار، وعلي بن الفضل الجندي، وسائر دعاة القرامطة والمشاركة لإضلال شيعة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوصلوا من ذلك إلى حيث عرف، وسلم الله من ذلك من لم يكن من الشيعة، وأما الحواريون الذين أثنى الله عليهم،

(١). انظر: الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي (٢٥/٢).

فأولئك أولياء الله حقاً، ندين لله ﷻ بحبهم، ولا ندرى أسماءهم، لأن الله تعالى لم يسمهم لنا، إلا إننا نثبت ونوقن ونقطع بأن باطرة الكذاب ومتى الشرطي ويوحنا المستخف ويهوذا ويعقوب النذلين ومارقس الفاسق ولوقا الفاجر وبولس الجاهل ما كانوا قط من الحواريين، لكن من الطائفة التي قال الله فيها (وكفرت طائفة)، وبالله تعالى التوفيق^(١).

الشرك في قوم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومنهجه في محاربته. لقد تتابعت بعثة الرسل والأنبياء على بني إسرائيل على مر العصور والأزمان، لانتشالهم من الضلال والجهل وطغيان المادة، ولكن بني إسرائيل لم يقابلوا تلك النعمة بالشكر والامتنان، وإنما قابلوها بالجحود والكفر، وتمردوا على الشرائع الربانية، التي جاء بها أنبياءهم، واستمروا على الشرك وعبادة الأوثان، حتى قبيل ظهور المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ظهر من الآلهة المقدسة في الإغريق والرومان والفرس والشام ومصر وبابل، وغيرها الأعداد الكثيرة.

يقول الدكتور أحمد شلبي في كتابه المسيحية: قبل ظهور المسيح، كانت هناك معابد كثيرة تقدس عدداً كبيراً من الآلهة، فهناك مثلاً آيلو الذي كان يقده الإغريق، وهيركوليس معبود الرومان، ومترا معبود الفرس، وأدونيس معبود السوريين، وأوزيريس وإيزيس وحورس

(١). انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، مكتبة الخانجي، القاهرة (٣٢٢-٣٣٣).

معبودات المصريين، وبعل معبود البابليين، وسواهم كثيرون. وكانت هذه الآلهة تعتبر كلها من نسل الشمس ...

فجاء عبدالله ورسوله عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بني إسرائيل، ليردهم إلى الطريق الحق، ويصحح لهم ما دخل على شريعتهم من تحريف وتبديل، ويبلغهم ما أنزل الله عليه من شريعة جديدة، وما فيها من تحليل بعض ما حرم عليهم في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب بغيتهم وعدوانهم، قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وأنزل الله تعالى عليه الإنجيل، فيه الهدى والنور، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وفيه البشارة بمحمد ﷺ النبي الخاتم، وصاحب الشريعة العامة لكافة الخلق، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. ودعا قومه إلى عبادة الله تعالى وتوحيده. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ اتَّبِعُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٣۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي

وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿[الزخرف: ٦٣-٦٥].

وعلى هذا الأساس، أخذ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى، ويقارعهم الحجة، ويرفض أي ادعاء أو زيادة ترفع شخصه عن جنس البشرية، أو مقام النبوة. وهكذا جاء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بكلمة التوحيد خالصة لله تعالى، في وضوح وجلاء، ولم يقل مرة واحدة: إنه إله، أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى أي صله بربه، غير صلة العبودية الخالصة من جانبه، والربوبية المطلقة لله رب العالمين.

ومن هذا يتبين لنا أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لو جرد من كل ما أضافه إليه المحرفون الضالون، لكان كما وصفه رب العزة والجلال في كتابه الكريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٠-٣٦].

ولما كان اليهود الذين بعث فيهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قساة القلوب، فقد أعرضوا عن رسالته، وأخذوا يصدون الناس من سماع دعوته، ولما وجدوا أن البعض يؤمن به ويلتفت حول دعوته، أخذوا يحرضون الرومان عليه، ويوهمونهم أن في دعوة عيسى زوالاً لملك قيصر، وتقويضاً لسلطانه، فتمكنوا من حمل الحاكم الروماني على إصدار الأمر بالقبض عليه، والحكم بإعدامه صلباً.

ولكن الله تعالى لم يمكنهم مما أرادوا به من كيد ومكر، إذ رفعه الله تعالى إليه، وألقى الشبه على غيره، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿[النساء: ١٥٧-١٥٨]. وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]^(١).

وإذا كان اليهود غلب عليهم التفريط والتقصير والجفاء في حق أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، مع غلوهم في بعضهم كالعزيز عَلَيْهِ السَّلَام. فإن النصارى قد ذهبوا إلى أقصى الطرف المعاكس، فغلب عليهم الغلو والإفراط، ولا سيما في نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، على أنهم فرطوا وقصروا أيضًا في حق بعض رسل الله، بل وفي حق عيسى عَلَيْهِ السَّلَام أيضًا، ويمكن إجمال مواقفهم في هذا الباب في الأمور التالية:

الأمر الأول: أنهم لم يؤمنوا بجميع رسل الله وأنبيائه؛ بل فرقوا بينهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وغلوا في البعض الآخر، وهم معنيون أيضًا بقوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

(١). انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، مرجع سابق (ص ٢٣١-٢٣٥).

وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، وقدمنا إيراد هذه

الآية في الكلام على موقف اليهود، وذكرنا ما قاله الإمام ابن جرير في تفسيرها، وفيه أن النصارى ممن آمن ببعض الأنبياء، وكفر ببعض، حيث آمنوا بعتسى وموسى بزعمهم، وكفروا بمحمد ﷺ.

الأمر الثاني: أنهم غلوا وأفرطوا في نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، ورفعوه فوق المكانة التي جعله الله فيها، وأنزلوه فوق المنزلة التي أنزله الله إياها.

فلم يؤمنوا به عبداً لله ورسولاً نبياً؛ وإنما جعلوه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، يتكون منها الإله، وعبدوه من دون الله ﷻ، وأضافوا إليه من الأفعال والأعمال ما لا يصح إضافته ونسبته إلا إلى الله ﷻ؛ فكانت عقيدتهم فيه التي أجمعوا عليها بعد (مجمع نيقية) وسموها بـ (الأمانة) على النحو التالي: الإيمان:

١. بإله واحد، أب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، صانع ما يرى، وما لا يرى.

٢. وبرز واحد يسوع، الابن الوحيد المولود من الأب، قبل الدهور من نور الله، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء،

وصلب حيًّا على عهد بيلاطس وتألّم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس على يمين الرب، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لملكه.

ولقد ذكر القرآن الكريم غلوهم في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقولهم بألوهيته وبنوته لله ﷺ، وكفرهم بذلك، فقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَذُفَّكُوكَ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وورد في بعض الأناجيل بعض النصوص، التي اعتمد عليها النصارى في تأليه المسيح وبنوته. من ذلك ما جاء في إنجيل (يوحنا) كقوله: في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله، هذا كان في البدء عند الله، كل به كون وبغيره لم يكون شيء مما كون. فجعل المسيح هو الكلمة، وجعل الكلمة هي الله، فالمسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم.

وفيه أيضاً أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أبرأ أعمى فردّه بصيراً، وأن اليهود لما سألوه من رد إليك بصرك وأخبرهم بذلك ووعظهم طردوه. وسمع

يسوع أنهم طردوه خارجاً فلقيه، وقال له: أتؤمن أنت بابن الله؟ فأجاب.
وقال: ومن هو يا سيد لأؤمن به؟ فقال له يسوع قد رأيته، وهو الذي
يكلمك؛ فقال له: قد آمنتم يا رب وسجد له.

على أن في هذا الإنجيل وغيره من الأناجيل من التناقضات في هذا
الباب الكثير، بل فيه ما يدل على بشرية المسيح وعبوديته، وأنه نبي
وليس بآله، وليس من غرضنا هنا ذكر ذلك؛ وإنما القصد الإشارة إلى
قولهم بالوهية المسيح وبنوته لله ﷺ.

الأمر الثالث: خذلانهم لنبيهم وعدم نصرته: إن من الواجب على
أتباع الرسل وخاصة أصحابهم وحواريهم، أن ينصروهم ويعزروهم،
ويفدوهم بأنفسهم وأموالهم، كما تقدم ذكر أخذ الله ميثاق بني إسرائيل
على نصر الرسل ومؤازرتهم. ولكن قوم عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، وتلاميذه
خذلوه ولم ينصروه عندما أراد أعداؤه من اليهود أخذه وقتله، بل
أسلمه بعضهم، ودل عدوه عليه، لولا أن الله رفعه، وألقى شبهه على
بعض تلاميذه.

ويسجل عليهم إنجيل (متى) هذا الموقف المشين، فيقول في ذلك:
حينئذ مضى أحد الاثني عشر، الذي يقال له: يهوذا الأسخريوطي إلى
رؤساء الكهنة، وقال لهم: ماذا تريدون أن تعطوني، فأسلمه إليكم؟
فجعوا له ثلاثين من القصة، ومن ذلك الوقت يطلب الفرصة ليسلمه.
وفيما هو يتكلم -أي: المسيح- إذ جاء يهوذا أحد الاثني عشر، ومعه
جمع كثير بسيوف وعصى من قبل رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب،

والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً، الذي أقبله هو هو. فأمسكوه وللوقت دنا إلى يسوع، وقال له: السلام يا معلم وقبله؛ فقال له يسوع: يا صاحب، لأي شيء جئت، حينئذ جاءوا، وألقوا أيديهم على يسوع، وأمسكوه. حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.

فانظر كيف تأمر عليه تلميذ وصاحب من أصحابه، وباعه لأعدائه بثمان بنخس دراهم معدودة، ثم كيف هرب باقي تلاميذه وتركوه، نعم حاول بعضهم الدفاع عنه، لكنهم في النهاية أسلموه لعدوه؛ على أنا لا نسلم لهم أن دعوه تمكن منه، وما صلبوه، وما قتلوه يقيناً، ولكن شبه لهم.

لكن الشاهد من هذا النص من الإنجيل: أن النصاري يثبتون أن تلاميذ المسيح وأصحابه أسلموه لليهود، وخلوا بينهم وبينه، وقبض بعضهم ثمناً لذلك. وهذا غاية الخذلان^(١).

العبر والعظات المستفادة

١. عيسى عبد الله ورسوله ونبيه، وليس كما يدعي النصاري أنه إله أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة.

(١). انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق: محمد با كريم محمد با عبدالله، دار الراية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م (٢٧٣-٢٧٦).

٢. دين الله الذي أرسل به رسله وأنبياءه هو التوحيد الخالص وعبادته وحده بلا شريك، وهو دين الإسلام، فأنبىء الله كلهم لا استثناء مسلمون مؤمنون موحدون، ودينهم واحد وإن اختلفت شرائعهم، فإن الدين عند الله الإسلام.
٣. كلما كثر الأعداء وتكالبوا كلما كان نصر الله قريب.
٤. أتباع الأنبياء منصورون لا محالة، والعاقبة لهم، وإن أصابهم شيء من البلاء والأواء.
٥. إذا تخلى عنك النصير وخذلك القريب، فاعلم أن الله يريد أن يتولى نصرك.



القسم الثالث

الأقوام المتفرقة

- أصحاب القرية
- أصحاب السبت
- يأجوج ومأجوج
- أصحاب الكهف
- أصحاب الجنة
- أصحاب الأخدود
- السيل العرم
- الروم
- أصحاب الفيل

أصحاب القرية (هم قوم يس)



نسبهم

قوم من بني اسرائيل^(١).

موقعهم الجغرافي

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية^(٢).

صفاتهم الكبير، والجهل.

حياتهم

هم قوم يس، قال الله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿[يس: ١٣-١٤] إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩] اشتهر عن كثير من السلف والخلف: أن هذه القرية أنطاكية. وكان لها ملك اسمه أنطيوخس بن أنطيوخس، وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل، وهم صادق، وصدوق، وشلوم، فكذبهم. وهذا ظاهر أنهم رسل من الله ﷺ. لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين، كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت، ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي يكون فيها بطارقة النصارى، وهن أنطاكية والقدس وإسكندرية، ورومية. ثم بعدها إلى القسطنطينية ولم يهلكوا، وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا، كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]، لكن

(١). انظر: البداية والنهاية (١٠/٢)

(٢). انظر: البداية والنهاية (١٠/٢)

إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديمًا، فكذبوهم، وأهلكهم الله، ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله إليهم، فلا يمنع هذا. والله أعلم.

قال الله تعالى ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ يعني: لقومك يا محمد ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ يعني المدينة ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٣) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٣-١٤]، أي أيدناهما بثالث في الرسالة ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤]، فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم، كما قالت الأمم الكافرة لرسلمهم، يستبعدون أن يبعث الله نبيًا بشريًا، فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبننا عليه لعاقبنا، وانتقم منا أشد الانتقام ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧]، أي إنما علينا، أي نبليكم ما أرسلنا به إليكم، والله هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي تشاء منا بما جئتمونا به ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ﴾، قيل بالمقال. وقيل بالفعال. ويؤيد الأول قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [يس: ١٨] توعدهم بالقتل والإهانة. ﴿قَالُوا طَيَّرَكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]، أي مردود عليكم: إن ذكرتم؟ أي بسبب أنا ذكرناكم بالهدى، ودعوناكم إليه، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩]، أي لا تقبلون الحق، ولا تريدونه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس: ٢٠] يعني: لنصرة الرسل، وإظهار الإيمان بهم ﴿قَالَ يَنْفِقُونَ أَتَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾

﴿٢٠﴾ **اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُنْتَدُونَ** ﴿[يس: ٢٠-٢١]، أي يدعونكم إلى الحق المحض، بلا أجر ولا جعالة. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه، مما لا ينفع شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿إِنِّي إِذْ أَتَيْتُ ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٤]، أي إن تركت عبادة الله وعبدت سواه. ثم قال مخاطباً للرسول ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ [يس: ٢٥]، قيل: فاستمعوا مقالتي، واشهدوا لي بها عند ربكم. وقيل: معناه فاسمعوا يا قومي إيماني برسول الله جهرة. فعند ذلك قتلوه. قيل: رجماً. وقيل: عضاً. وقيل: وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه. وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود قال: وطئوه بأرجلهم حتى أخرجوا قصبه.

وكان اسم هذا الرجل حبيب بن مري. ثم قيل: كان نجاراً. وقيل: حبالاً. وقيل: إسكافاً. وقيل: قصاراً. وقيل: كان يتعبد في غار هناك. فإله أعلم. وعن ابن عباس: كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، قتله قومه.

ولهذا قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]، يعني: لما قتله قومه أدخله الله الجنة، فلما رأى ما فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧]، يعني: ليؤمنوا بما آمنت به، فيحصل لهم ما حصل لي. قال ابن عباس: نصح قومه في حياته: ﴿قَالَ يَنْقُورُوا اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وبعد مماته: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَا غَفَرُ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧]. رواه

ابن أبي حاتم. وكذلك قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا، لا تلقاه غاشًا، لما عاين ما عاين من كرامة الله قال: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾، تمنى على الله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله، وما هجم عليه. قال قتادة: فلا والله، ما عاتب الله قومه بعد قتله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ [يس: ٢٩]، وقوله تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزْلِينَ﴾ [يس: ٢٨]، أي ما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم. هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود. وقال مجاهد وقاتادة: وما أنزل عليهم جندًا، أي رسالة أخرى. قال ابن جرير: والأول أولى. قلت: وأقوى. ولهذا قال ﴿وَمَا كُنَّا مُزْلِينَ﴾، أي وما كنا نحتاج في الانتقام إلى هذا، حين كذبوا رسلنا، وقتلوا ولينا ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ أي قد أخدمت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عين تطرف. وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية، لأن هؤلاء أهلکوا بتكذيبهم رسل الله إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا، واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم، فلهذا قيل: إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح. والله أعلم^(١).

(١). انظر: البداية والنهاية، مرجع سابق (١٠/٢-١٥)، والبدء والتاريخ (١/١٦٤).

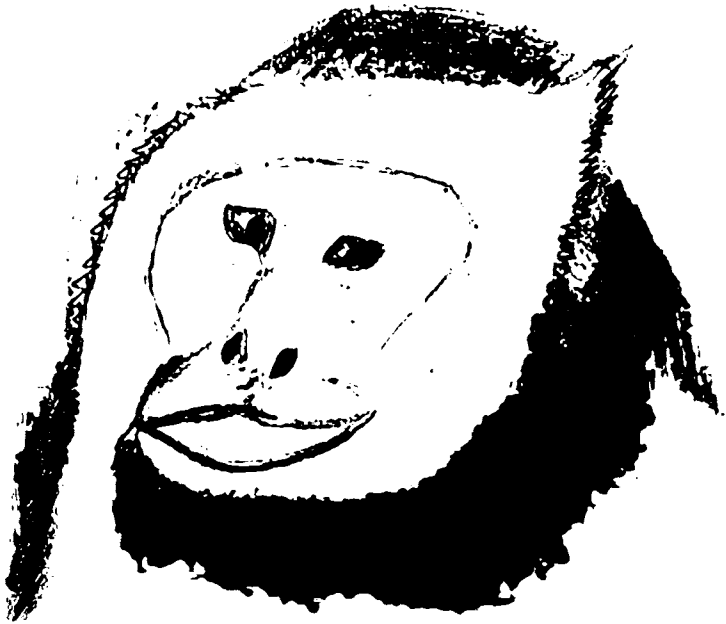
العبر والعظات المستفادة

أخذ العبرة من هذه القصة، التي أرسل الله أكثر من رسول لقرية واحدة، ففيها عبر كثيرة، وفوائد جمة:

١. إرسال الرسل إلى القرية، لإقامة الحجة على الناس.
٢. أهمية تعزيز الداعية بدعاة آخرين ووسائل، من المقومات التي تساعد في نجاح الدعوة.
٣. المعاصي هي سبب نزول البلاء.
٤. بيان بعض صفات الداعية، ومنها الصبر على جهل المدعويين، ومخاطبتهم باللين، ومع قتله لهم، لكن ما دعا ربه بهلاكهم، بل تمنى أن يروا ما فيه من النعيم، ليعرفوا ما هي عاقبة المتقين، والترفع عن طلب الأجر الدنيوي.
٥. رحمة الله بخلقه بإرسال الرسل لهدايتهم.



أصحاب السبت



نسبهم

لم يذكر نسبهم على وجه التحديد، ولكن قال ابن عباس: إنهم كانوا من بني إسرائيل^(١).

موقعهم الجغرافي

قرية على شاطئ البحر^(٢). بين مدين والطور.

صفاتهم

حياتهم

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦]، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦]، وقال تعالى في سورة النساء: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: ٤٧].

(١). انظر: البداية والنهاية (٢٧٤/٩).

(٢). انظر: البداية والنهاية (٢٧٤/٩).

هم أهل أيلة. بين مدين والطور. وكانوا متمسكين بدين التوراة في تحريم السبت في ذلك الزمان، فكانت الحيتان قد ألقت منهم السكينة في مثل هذا اليوم، وذلك أنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه، وكذلك جميع الصنائع والتجارات والمكاسب، فكانت الحيتان في مثل يوم السبت يكثر غشيانها لمحلتهن من البحر، فتأتي من ها هنا وها هنا ظاهرة آمنة مسترسلة، فلا يهيجونها، ولا يذعرونها. ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، وذلك لأنهم كانوا يصطادونها فيما عدا السبت. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾، أي: نختبرهم بكثرة الحيتان في يوم السبت. ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، أي: بسبب فسقهم المتقدم، فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت، بأن نصبوا الجبال والشباك والشصوص، وحفروا الحفر التي يجري معها الماء إلى مصانع قد أعدوها، إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها، ففعلوا ذلك في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت، علقت بهذه المصايد، فإذا خرج سبتهم أخذوها، فغضب الله عليهم ولعنهم، لما احتالوا على خلاف أمره، وانتهكوا محارمه بالحيل، التي هي ظاهرة للناظر، وهي في الباطن مخالفة محضة، فلما فعل ذلك طائفة منهم افترق الذين لم يفعلوا فرقتين: فرقة أنكروا عليهم صنعهم هذا، واحتيالهم على مخالفة الله وشرعه في ذلك الزمان. وفرقة أخرى لم يفعلوا ولم ينهوا، بل أنكروا على الذين نهوا، وقالوا: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، يقولون لهم: ما الفائدة في نهيكهم هؤلاء وقد استحقوا العقوبة لا محالة؟ فأجابتهم الطائفة المنكرة

بأن قالوا: ﴿مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: فيما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنقوم به خوفاً من عذابه. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، أي: ولعل هؤلاء يتركون ما هم عليه من هذا الصنيع، فيقيمهم الله عذابه، ويعفو عنهم إذا هم رجعوا واستمعوا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، أي: لم يلتفتوا إلى من نهاهم عن هذا الصنيع الشنيع الفظيع ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾، وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم المرتكبون الفاحشة ﴿عَذَابٍ بِّئْسَ﴾، وهو الشديد المؤلم الموجه ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، ثم فسر العذاب الذي أصابهم بقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

والمقصود هنا: أن الله أخبر أنه أهلك الظالمين، ونجى المؤمنين المنكرين، وسكت عن الساكتين، وقد اختلف فيهم العلماء على قولين، فقيل: إنهم من الناجين. وقيل: إنهم من الهالكين. والصحيح الأول عند المحققين، وهو الذي رجع إليه ابن عباس، إمام المفسرين، وذلك عند مناظرة مولاه عكرمة، فكساه من أجل ذلك حلة سنية، تكرمة. قلت: وإنما لم يذكروا مع الناجين؛ لأنهم وإن كرهوا ببواطنهم تلك الفاحشة، إلا أنهم كان ينبغي لهم أن يحملوا ظواهرهم بالعمل بالمأمور به من الإنكار القولي، الذي هو أوسط المراتب الثلاث، التي أعلاها الإنكار باليد ذات البنان، وبعدها الإنكار القولي باللسان، وثالثها الإنكار بالجنان. فلما لم يذكروا، لم يذكروا مع الناجين، إذ لم يفعلوا الفاحشة، بل أنكروا. إن الذين ارتكبوا هذا الصنيع، اعتزلهم بقية أهل

البلد، ونهاهم من نهاهم منهم، فلم يقبلوا، فكانوا يبيتون وحدهم، ويغلقون بينهم وبينهم أبواباً، حاجزاً لما كانوا يترقبون من هلاكهم، فأصبحوا ذات يوم وأبواب ناحيتهم مغلقة لم يفتحوها، وارتفع النهار واشتد الضحاء، فأمر بقية أهل البلد رجلاً أن يصعد على سلالم ويشرف عليهم من فوقهم، فلما أشرف عليهم، إذا هم قردة لها أذنان يتعاونون ويتعادون، ففتحوا عليهم الأبواب، فجعلت القردة تعرف قراباتهم، ولا تعرفهم قراباتهم، فجعلوا يلوذون بهم، ويقول لهم الناهون: ألم نهكم عن صنيعكم؟ فتشير القردة براء وسها: أن نعم. ثم بكى عبدالله بن عباس، وقال: إنا لنرى منكرات كثيرة، ولا ننكرها، ولا نقول فيها شيئاً. وعن ابن عباس: صار شباب القرية قردة، وشيوخها خنازير. وعن ابن عباس، أنهم لم يعيشوا إلا فواقاً، ثم هلكوا، ما كان لهم نسل. وعن ابن عباس: إنه لم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل هؤلاء، ولم يشربوا، ولم ينسلوا. وعن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة وخنازير، وإنما هو مثل ضربه الله، كمثل الحمار يحمل أسفاراً. وهذا صحيح إليه، وغريب منه جداً، ومخالف لظاهر القرآن، ولما نص عليه غير واحد من السلف والخلف. والله أعلم^(١).

وقال بعض الأئمة: في هذه الآية مزجرة عظيمة للمتعاطين الحيل على المناهي الشرعية، ممن يتلبس بعلم الفقه وليس بفقيه؛ إذ الفقيه من يخشى الله تعالى في الربويات والتحليل باستعارة المحلل للمطلقات

(١). انظر: البداية والنهاية (٥٨٢/٢-٥٨٦).

والخلع لحل ما لزم من المطلقات المعلقة، إلى غير ذلك من عظام ومصائب لو اعتمد بعضها مخلوق في حق مخلوق، لكان في نهاية القبح فكيف في حق من يعلم السر وأخفى. ولهذا والله أعلم مسخوا قرده، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان. وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله، بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته، مسخهم الله قرده يشبهونهم في بعض ظاهرهم، دون الحقيقة جزاءً وفاقاً.

فإذا كان الله سبحانه قد نكل بعقوبة هؤلاء سائر من بعدهم ووعظ بها المتقين، فحقيق بالمؤمن أن يحذر استحلال محارم الله تعالى، وأن يعلم أن ذلك من أشد أسباب العقوبة، وذلك يقتضي أنه من أعظم الخطايا والمعاصي، ثم مما يقضي منه العجب أن هذه الحيلة التي احتالها أصحاب السبت في الصيد قد استحلها طوائف من المفتين، حتى تعدى ذلك إلى بعض الحيلة، فقالوا: إن الرجل إذا نصب شبكة، أو شصاً قبل أن يحرم، ليقع فيه الصيد بعد إحرامه، ثم أخذه بعد حله لم يحرم ذلك، وهذه بعينها حيلة أصحاب السبت، وفي ذلك تصديق قوله

﴿فَاسْتَنْعِمُوا بِحُلِيِّكُمْ كَمَا اسْتَمَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحُلِيِّهِمْ وَخُضُّهُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]. وقول النبي ﷺ: «لتبعن سنن من كان قبلكم حدوا القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب

لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(١)

وهو حديث صحيح، وهذا كله إذا تأمله اللبيب علم أنه يدل على أن هذه الحيل من أعظم المحرمات في دين الله تعالى^(٢).

العبر والعظات المستفادة

لقصة أصحاب السبب أهمية بالغة لتعلقه بدراسة القصص القرآني، واستنباط ما فيه من دروس وعبر. ومعرفة طبائع اليهود للحذر من سوء أساليبهم وحيلهم الخبيثة؛ فلا شك أنهم أعدى أعدائنا. وحاجة الدعاة والمصلحين والمربين إلى الاستفادة من قصص القرآن وتوظيفه في الدعوة والتربية ومنها:

١. الاعتبار بأحوال الأمم الماضية.
٢. أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم الوقوف على الحياد.
٣. التحذير من التهوين في شأن الإصلاح.

(١). أخرجه البخاري (١٦٩/٤) رقم (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٠٥٤/٤) رقم (٢٦٦٩).

(٢). انظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحارثي الحنبلي الدمشقي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م (٢٤/٦-٣١).

٤. عدم التحايل على المعصية لسد الذرائع والحيل المفضية إلى الحرام.

٥. الفرقة التي عصت أوامر الله، وتمادت في معصية الله، كانت هالكة، والفرقة التي أنكرت العصيان ووعظت العصاة، كانت ناجية. وأما الفرقة الساكتة فكانت على الراجح من الناجين، لإنكارها بالقلب.



يا جوج وما جوج



نسبهم

يأجوج مأجوج اسمان أعجميان: وقيل: عريان ، وأصل يأجوج مأجوج من البشر ، من ذرية آدم و حواء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، و يأجوج مأجوج من ذرية يافث أبي الترك ، ويافث من ولد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

موقعهم الجغرافي

في جهة مشرق الأرض، ولكن لم يطلع الناس على هذا السد، رغم هذا التطور العلمي والتقدم التقني.

صفاتهم

صفاتهم التي جاءت بها الأحاديث، فهي يشبهون أبناء جنسهم من الترك المغول، صغار العيون، ذلف الأنوف، صهب الشعور، عراض الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة^(٢). وفيهم شدة وبأس، وأكثر طعامهم الصيد، وكانوا يغيرون على الأمم التي تليهم، ويخربون بلدانهم^(٣).

حياتهم

هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه، ثم الدليل على ذلك، ما ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، قم فابعث بعث النار من ذريتك. فيقول: يا

(١). انظر: قصص القرآن، جمع وترتيب محمود المصري (٢٥٨).

(٢). () انظر: النهاية في الفتن والملاحم (١٥٣/١).

(٣). انظر: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران (٩٣/١).

رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد». قالوا: يا رسول الله، أين ذلك الواحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبشروا، فإن منكم واحداً، ومن يأجوج ومأجوج ألفاً»، وفي رواية: فقال: «أبشروا فإن فيكم أمتين، ما كانتا في شيء إلا كثرته»^(١)، أي غلبته كثرة، وهذا يدل على كثرتهم، وأنهم أضعاف الناس مراراً عديدة. ثم هم من ذرية نوح، لأن الله تعالى أخبر أنه استجاب لعبده نوح في دعائه على أهل الأرض بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

ومن زعم أن يأجوج ومأجوج خلقوا من نطفة آدم حين احتلم، فاختلطت بتراب فخلقوا من ذلك، وأنهم ليسوا من حواء، فهو قول حكاه الشيخ أبو زكريا النووي، في شرح مسلم وغيره، وضعفه، وهو جدير بذلك، إذ لا دليل عليه، بل هو مخالف لما ذكرناه من أن جميع الناس اليوم من ذرية نوح، بنص القرآن. وهكذا من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جداً، فمنهم من هو كالنخلة السحق، ومنهم من هو غاية في القصر، ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه، ويتغطي بالأخرى، فكل هذه أقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان.

(١). أخرجه البخاري (١٣٨/٤ رقم ٣٣٤٨)، ومسلم (٢٠١/١ رقم ٢٢٢).

والصحيح: أنهم من بني آدم، وعلى أشكالهم وصفاتهم. وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ»^(١)، وهذا فيصل في هذا الباب وغيره^(٢).

فإن قيل: فكيف دل الحديث المتفق عليه: أنهم فداء المؤمنين يوم القيامة، وأنهم في النار، ولم يبعث إليهم رسل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؟

فالجواب: أنهم لا يعذبون إلا بعد قيام الحجة عليهم، والإعذار إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، فإن كانوا في الزمن الذي قبل بعث محمد ﷺ قد أتتهم رسل منهم، فقد قامت على أولئك الحجة، وإن لم يكن قد بعث الله إليهم رسلاً، فهم في حكم أهل الفترة ومن لم تبلغه الدعوة. وقد دل الحديث المروي من طرق عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ، أن من كان كذلك يمتحن في عرصات القيامة، فمن أجاب الداعي دخل الجنة، ومن أبى دخل النار. وقد حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري إجماعاً عن أهل السنة والجماعة، وامتحنهم لا يقتضي نجاتهم، ولا ينافي الإخبار عنهم بأنهم من أهل النار، لأن الله يطلع رسوله ﷺ على ما يشاء من أمر الغيب، وقد أطلعه على أن هؤلاء من أهل الشقاء، وأن سجايهم تأبى قبول

(١). أخرجه البخاري (١٣١/٤) رقم ٣٣٢٦، ومسلم (٢١٧٩/٤) رقم ٢٨٣٤.

(٢). انظر: أخبار الزمان ومن أباده الحداث، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران (٩٣/١).

الحق والانقياد له، فهم لا يجيبون الداعي يوم القيامة، فيعلم من هذا أنهم كانوا أشد تكذيباً للحق في الدنيا لو بلغهم فيها، لأن في عرصات القيامة ينقاد خلق ممن كان مكذباً في الدنيا، فإيقاع الإيمان هناك لما يشاهد من الأهوال أولى وأحرى منه في الدنيا. والله أعلم.

وأما السد فإن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس، وسأوى به الجبال الصم الشامخات الطوال، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجل منه، ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم.

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلاً من جهته، وكتب لهم كتباً إلى الملوك، يوصلونهم من بلاد إلى بلاد، حتى يتتبعوا إلى السد، فيكشفوا عن خبره، وينظروا كيف بناه ذو القرنين، وعلى أي صفة، فلما رجعوا أخبروا عن صفته، وأن فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال، وأنه بناء محكم شاق، منيف جدّاً، وأن بقية اللبن الحديد والآلات في برج هناك، وذكروا أنه لا يزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة لتلك البلاد، ومحلته في شرقي الأرض في جهة الشمال، في زاوية الأرض الشرقية الشمالية. ويقال: إن بلادهم متسعة جدّاً، وإنهم يقتاتون بأصناف من المعاش، من حراثة وزراعة واصطياد من البر ومن البحر، وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم. فإن قيل: فما الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، وبين الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش أم المؤمنين، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نوم، محمراً

وجهه وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلق تسعين. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفيما الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبيث»^(١).

فالجواب: أما على قول من ذهب إلى أن هذا إشارة إلى فتح أبواب الشر والفتن، وأن هذا استعارة محضة وضرب مثل، فلا إشكال. وأما على قول من جعل ذلك إخبارًا عن أمر محسوس، كما هو الظاهر المتبادر، فلا إشكال أيضًا، لأن قوله: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، أي: في ذلك الزمان، لأن هذه صيغة خبر ماضٍ، فلا ينفي وقوعه فيما يستقبل بإذن الله لهم في ذلك قدرًا، وتسليطهم عليه بالتدرج قليلًا قليلًا، حتى يتم الأجل وينقضي الأمد المقدور، فيخرجون، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]. والله أعلم^(٢).

وأما ذكر خروج يأجوج ومأجوج، وذلك في أيام عيسى ابن مريم بعد قتله الدجال، فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم، قال الله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فَتَحْتَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَسْأَلُونَ﴾^(١)، واقترب الوعد الحق فإذا هي شخصة أبصر الذين كفروا يبولنا قد كنّا في غفلة من هذا بل كنّا ظالمين ﴿[الأنبياء: ٩٦-٩٧]، وقال تعالى في قصة ذي القرنين: ﴿حَقَّ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ

(١). أخرجه البخاري (١٣٨/٤) رقم ٣٣٤٦، ومسلم (٢٢٠٧/٤) رقم ٢٨٨٠.

(٢). انظر: البداية والنهاية (٥٥٢/٢-٥٦٠).

الْأَسَدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ [الكهف: ٩٣-٩٤]، الآيات إلى آخر القصة.

وفي قصة ذي القرنين خبر بنائه للسد من حديد ونحاس بين جبلين، فصار ردماً واحداً، وقال: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾، أي يحجز به بين هؤلاء القوم المفسدين في الأرض وبين الناس. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، أي الوقت الذي قدر انهدامه فيه. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، أي مساوياً للأرض. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، أي هذا شيء لا بد من كونه ووقوعه، ﴿وَنَرَكُنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَعَلْنَاهُمْ جُمُوعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، أي إذا انهدم يخرجون على الناس فيموجون فيهم. وينسلون، أي يسرعون المشي من كل حذب، ثم يكون النفخ في الصور للفرع قريباً من ذلك الوقت، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وقد ذكرنا في الأحاديث الواردة في خروج الدجال ونزول المسيح طرفاً صالحاً من ذكرهم، من رواية النواس بن سمعان وغيره.

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ﴾. فيغشون الناس وينحاز الناس عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، فيشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه، حتى يتركوه

يَسًا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر، فيقول: قد كان ها هنا ماء مرة. حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء. قال: ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مختضبة دماً للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك بعث الله دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى، لا يسمع لهم حسٌّ، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟ قال: فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه، قد وطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله تعالى قد كفاكم عدوكم. فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فَشَكَرُ^(١) عنه كأحسن ما شَكَرْتُ عن شيء من النبات أصابته قط»^(٢). وهو إسناد جيد^(٣).

(١). أي تسمن وتمتلئ شحاً، من شكرت الشاة بالكسر شَكَرًا بفتحتين، أي: سمنت وامتلاً ضرعها لبنًا. وفي حديث يأجوج ومأجوج (وإن دواب الأرض تسمن وتشكر شكرًا من لحومهم) قوله: (تشكر)، أي تمتلئ، يقال: شكرت الشاة. شكرًا إذا امتلأ ضرعها لبنًا. الغريبين في القرآن والحديث: أبو عبيد أحمد ابن محمد الهروي، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعته: أ. د. فتحي حجازي، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م (١٠٢٣/٣).

(٢). أخرجه أحمد (٢٥٦-٢٥٨ رقم ١١٧٣١)، وابن ماجه (١٣٦٣/٢ رقم ٤٠٧٩)، وأبو يعلى (٣٧٧/٢ رقم ١١٤٤)، وصححه ابن حبان في صحيحه (٢٤٤/١٥-٢٤٥ رقم ٦٨٣٠)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٠٠/٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٢/٤-٤٠٣ رقم ١٧٩٣).

(٣). انظر: البداية والنهاية (٢٤٠-٢٣٣/١٩).

العبر والعظات المستفادة

يأجوج ومأجوج من عجيب ما حدثتنا به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عن حادثة فريدة، لها خصائص لا توجد في غيرها من الحوادث:

١. عقاب الظالمين وفق قوانين وأحكام، وهم الذين لم يذعنوا للحق بعد نصحهم وإرشادهم.
٢. مكافأة المحسنين وهو تعليمهم أمور الدين، ليكونوا من بعد رحيلهم دعاة للحق والخير.
٣. ربط العذاب الدنيوي البشري بعذاب الآخرة الأشد، ليكون عبرة لهؤلاء الظالمين.
٤. الإيجابية في الحكم، على الحاكم أن يستثمر مدة حياته أو حكمه في عمل الخير والإصلاح، ومحاربة الفساد، بوضع حواجز بين المفسدين والمجتمع.
٥. الجزاء من جنس العمل.
٦. صفات الحاكم القوي ذي العلم والمعرفة والحكمة، وردع الظالمين، ومكافأة المؤمنين.



أصحاب الكهف



نسبهم

هم فتية من الروم^(١).

موقعهم الجغرافي

اختلف العلماء في محلة هذا الكهف، فقال كثيرون: هو بأرض أيلة. وقيل: بأرض نينوى. وقيل: بالبلقاء. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: كانوا بمدينة للروم اسمها افسوس^(٢).

صفاتهم

قوة الإيمان بالله، والهداية.

حياتهم

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، ما ذكره محمد بن إسحاق، في السيرة وغيره، أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، ويسألونه عنها، ليختبروا ما يجيب به فيها، فقالوا: سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدرى ما صنعوا، وعن رجل طواف في الأرض وعن الروح. فأنزل الله تعالى ﴿وَسْأَلُونَا عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. ﴿وَسْأَلُونَا عَنِ الْقَرْيَتَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوهُنَّ لَكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، وقال ها هنا: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، أي: ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة، والآيات

(١). انظر: البدء والتاريخ (١/١٦٤).

(٢). انظر: الكامل في التاريخ (١/٢٧٤).

الباهرة، والعجائب الغريبة. والكهف هو الغار في الجبل. والرقيم: هو الكتاب المرقوم، فيه أسماءهم، وما جرى لهم، كتب من بعدهم. اختاره ابن جرير وغيره. والله أعلم.

والظاهر من السياق: أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام. قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم: كانوا في زمن ملك يقال له: دقيانوس. وكانوا من أبناء الأكابر. وقيل: من أبناء الملوك. واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم، من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان، فنظروا بعين البصيرة، وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة، وألهمهم رشدهم، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء، فخرجوا عن دينهم، وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ويقال: إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد، انحاز عن الناس، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد، كما صح في البخاري: «الأرواح جنود مجنده، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(١)، فكل منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه، فأخبره بما هو عليه، واتفقوا على الانحياز عن قومهم، والتبري منهم، والخروج من بين أظهرهم، والفرار بدينهم منهم، وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور. قال الله تعالى: ﴿تَحْنُ نَفْصُ عَلَيْنَا نَبَّأَهُم بِالْحَقِّ إِتَيْنَهُمْ فِتْنَةً أَمْسُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا

(١). أخرجه البخاري (١٣٣/٤) رقم (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٠٣١/٤) رقم (٢٦٣٨).

إِذَا شَطَطًا ﴿[الكهف: ١٣-١٤]، أي: بدليل ظاهر على ما ذهبوا إليه، وصاروا من الأمر عليه ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَّوَلَا يَأْتِيهِمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيْنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اغْتَرَفْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْذُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿[الكهف: ١٥-١٦]، أي: وإذ قد فارقتموهم في دينهم، وتبرأتم مما يعبدون من دون الله، وذلك لأنهم كانوا يشركون مع الله، كما قال الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿[الزخرف: ٢٦-٢٧]، أي: يسبل عليكم ستره، وتكونوا تحت حفظه وكفنه، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير، كما جاء في الحديث: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة»^(١)، ثم ذكر تعالى صفة الغار الذي آووا إليه، وأن بابه موجه إلى نحو الشمال، وأعماقه إلى جهة القبلة، وذلك أنفع الأماكن، أن يكون المكان قبليًا، وبابه نحو الشمال، فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴿[الكهف: ١٧]، فأخبر أن الشمس، يعني في زمن الصيف وأشباهه، تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي، ثم تشرق في الخروج منه قليلًا قليلًا،

(١). أخرجه أحمد (١٧٠/٢٩-١٧١ رقم ١٧٦٢٨)، والحاكم (٦٨٣/٣ رقم ٦٥٠٨)، وسكت عليه هو والذهبي. والطبراني في الكبير (٣٣/٢ رقم ١١٩٨)، وفي الدعوات الكبير (٣٥٩/١ رقم ٢٦٩)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٣٩/٢ رقم ٨٥٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ١١٦٩).

وهو ازورارها ذات اليمين، فترتفع في جو السماء، وتتقلص عن باب الغار، ثم إذا تضيفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب، كما هو المشاهد في مثل هذا المكان، والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الكهف: ١٧]، أي: بقاؤهم على هذه الصفة دهرًا طويلاً من السنين، لا يأكلون ولا يشربون، ولا تتغذى أجسادهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَحْدِلَ، وَلِئَا مَرشدًا وَنَحْسِبُهُمْ أَيَّكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٧-١٨]، قال بعضهم: لأن أعينهم مفتوحة، لئلا تفسد بطول الغمض

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، قيل: في كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب، ويحتمل أكثر من ذلك، فالله أعلم. ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]. والمراد: أن كلبهم الذي كان معهم، وصحبهم حال انفرادهم من قومهم، لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف، بل ربض على بابه، ووضع يديه على الوصيد، وهذا من جملة أدبه، ومن جملة ما أكرموا به، فإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب، ولما كانت التبعية مؤثرة، حتى في كلب هؤلاء، صار باقياً معهم ببقائهم، لأن من أحب قومًا سعد بهم، فإذا كان هذا في حق كلب، فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للإكرام. وقد ذكر كثير من القصاص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبرًا طويلاً، أكثره متلقى من الإسرائيليات، وكثير منها كذب، ومما لا فائدة فيه، كاختلافهم في اسمه ولونه.

وأما اختلاف العلماء في محلة هذا الكهف، فقال كثيرون: هو بأرض أيلة. وقيل: بأرض نينوى. وقيل: بالبلقاء. وقيل: ببلاد الروم. وهو أشبه. والله أعلم. ولما ذكر الله تعالى ما هو الأنفع من خبرهم، والأهم من أمرهم، ووصف حالهم، حتى كأن السامع راء، والمخبر مشاهد لصفة كهفهم، وكيفيتهم في ذلك الكهف وتقلبهم من جنب إلى جنب، وأن كلبهم باسط ذراعيه بالصيد. قال: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ [الكهف: ١٨]، أي: لما عليهم من المهابة والجلالة في أمرهم الذي صاروا إليه، ولعل الخطاب ها هنا لجنس الإنسان المخاطب، لا لخصوصية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كقوله: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ﴾ [التين: ٧]، أي: أيها الإنسان، وذلك لأن طبيعة البشرية تفر من رؤية الأشياء المهيبة غالبًا، ولهذا قال: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾، ودل على أن الخبر ليس كالمعاينة، كما جاء في الحديث؛ لأن الخبر قد حصل ولم يحصل الفرار ولا الرعب. ثم ذكر تعالى أنه بعثهم من رقدتهم بعد نومهم بثلاث مئة سنة وتسع سنين، فلما استيقظوا، قال بعضهم لبعض: ﴿كَمْ لَيْسْتُمْ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسْتُمْ فَاِذْ بَعَثْتُمْ أَحَدَكُمْ يَوْرِقْكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩]، أي: بدراهمكم هذه، يعني التي معهم، إلى المدينة. ويقال، كان اسمها دفسوس. ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أي: أطيب مالا ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي: بطعام تأكلونه، وهذا من زهدهم وورعهم ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾، أي: في دخوله إليها ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ⑪ إِنْهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا

عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعَذِّبُكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

[الكهف: ١٩-٢٠]، أي: إن عدتم في ملتهم بعد إذ أنقذكم الله منها، وهذا كله لظنهم أنهم رقدوا يومًا أو بعض يوم أو أكثر من ذلك، ولم يحسبوا أنهم قد رقدوا أزيد من ثلاث مئة سنة، وقد تبدلت الدول أطوارًا عديدة، وتغيرت البلاد ومن عليها، وذهب أولئك القرن الذين كانوا فيهم، وجاء غيرهم وذهبوا، وجاء غيرهم، ولهذا لما خرج أحدهم، وهو تيدوسيس فيما قيل، وجاء إلى المدينة متنكرًا، لئلا يعرفه أحد من قومه فيما يحسبه، تنكرت له البلاد، واستنكره من رآه من أهلها، واستغربوا شكله وصفته ودراهمه. فيقال: إنهم حملوه إلى متوليهم، وخافوا من أمره أن يكون جاسوسًا، أو تكون له صولة يخشون من مضرتها، فيقال: إنه هرب منهم. ويقال: بل أخبرهم خبره ومن معه، وما كان من أمرهم، فانطلقوا معه ليريهم مكانهم، فلما قربوا من الكهف، دخل إلى إخوانه، فأخبرهم حقيقة أمرهم، ومقدار ما رقدوا، فعلموا أن هذا من قدرة الله. فيقال: إنهم استمروا راقيدين. ويقال: بل ماتوا بعد ذلك.

وأما أهل البلدة، فيقال: إنهم لم يهتدوا إلى موضعهم من الغار، وعسى الله عليهم أمرهم. ويقال: لم يستطيعوا دخوله حسًا. ويقال: مهابة لهم.

واختلفوا في أمرهم، فقائلون يقولون: ﴿فَقَالُوا أَبْنَاؤُا عَلَيْهِمُ بَنِينَا﴾، أي: سدوا عليهم باب الكهف، لئلا يخرجوا، أو لئلا يصل إليهم ما يؤذيهم، وآخرون، وهم الغالبون على أمرهم، قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَ

عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿[الكهف: ٢١]﴾، أي: معبدًا يكون مباركًا لمجاورته هؤلاء الصالحين. وهذا كان شائعًا فيمن كان قبلنا، فأما في شرعنا فقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا^(١). وأما قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١]، فمعنى ﴿أَعِزَّنَا﴾ ﴿أَعِزَّنَا﴾ أطلعنا على أمرهم الناس. قال كثير من المفسرين: ليعلم الناس أن المعاد حق، وأن الساعة لا ريب فيها، إذا علموا أن هؤلاء القوم رقدوا أزيد من ثلاث مئة سنة ثم قاموا، كما كانوا من غير تغير منهم، فإن من أبقاهم كما هم قادر على إعادة الأبدان وإن أكلتها الديدان، وعلى إحياء الأموات وإن صارت أجسامهم وعظامهم رفاتًا، وهذا مما لا يشك فيه المؤمنون ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. هذا ويحتمل عود الضمير في قوله: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ إلى أصحاب الكهف، إذ علمهم بذلك من أنفسهم أبلغ من علم غيرهم بهم، ويحتمل أن يعود على الجميع. والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بَعْدَتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فذكر اختلاف الناس في كميتهم، فحكي ثلاثة أقوال وضعف الأولين، وقرر الثالث، فدل على أنه الحق، إذ لو قيل غير ذلك لحكاه، ولو لم يكن هذا الثالث هو الصحيح لوهاه، فدل على ما قلناه، ولما كان النزاع في مثل هذا لا طائل تحته ولا جدوى

(١). أخرجه البخاري (١٦٩/٤ رقم ٣٤٥٣)، ومسلم (٣٧٧/١ رقم ٥٣١).

عنده، أرشد نبيه ﷺ إلى الأدب في مثل هذا الحال، إذا اختلف الناس فيه أن يقول: الله أعلم. ولهذا قال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾، وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي: من الناس ﴿فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ [الكهف: ٢٢]، أي سهلاً، ولا تتكلف إعمال الجدل في مثل هذا الحال، ولا تستفت في أمرهم أحداً من الرجال، ولهذا أبهم تعالى عدتهم في أول القصة، فقال: ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ولو كان في تعيين عدتهم كبير فائدة لذكرها عالم الغيب والشهادة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ (٢٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَّرَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، أدب عظيم أرشده الله تعالى إليه، وحث خلقه عليه، وهو ما إذا قال أحدهم: إني سأفعل في المستقبل كذا. فيشرع له أن يقول: إن شاء الله. ليكون ذلك تحقيقاً لعزمه، لأن العبد لا يعلم ما في غد، ولا يدري أهذا الذي عزم عليه مقدر أم لا، وليس هذا الاستثناء تعليقاً، وإنما هو الحقيقي، ولهذا قال ابن عباس: إنه يصح إلى سنة. ولكن قد يكون في بعض المحال لهذا ولهذا، كما تقدم في قصة سليمان، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين قال: «لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، تلد كل امرأة منهن غلاماً، يقاتل في سبيل الله. فقليل له: قل: إن شاء الله. فلم يقل، فطاف، فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان». قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله. ثم يحنث، وكان دركاً لحاجته»^(١).

(١). أخرجه البخاري (٢٢/٤ رقم ٢٨١٩)، ومسلم (١٢/١٢٧٥ رقم ١٦٥٤).

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، وذلك لأن النسيان قد يكون من الشيطان، فذكر الله يطرده عن القلب، فيذكر ما كان قد نسيه. وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لِقَرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤]، أي: إذا اشتبه أمر وأشكل حال والتبس أقوال الناس في شيء، فارغب إلى الله ييسره لك، ويسهله عليك، ثم قال: ﴿وَلْيَتُوبَا فِي كَهْفِهِمَا ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تَسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، لما كان في الإخبار بطول مدة لبثهم فائدة عظيمة، ذكرها تعالى، وهذه التسع المزیدة بالقمرية، وهي لتكميل ثلاث مئة شمسية، فإن كل مئة قمرية تنقص عن الشمسية ثلاث سنين ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتُوبَا﴾، أي إذا سئلت عن مثل هذا، وليس عندك في ذلك نقل، فرد الأمر في ذلك إلى الله، ﴿لَهُ الْغَيْبُ السَّعْوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: هو العالم بالغيب، فلا يطلع عليه إلا من شاء من خلقه ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾، يعني أنه يضع الأشياء في محالها لعلمه التام بخلقه، وبما يستحقونه، ثم قال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، أي: بل هو المنفرد بالملك والمتصرف فيه وحده لا شريك له^(١).

العبر والعظات المستفادة

قصص القرآن الكريم قصها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى للاعتبار والتفكر في مضمونها ومعانيها، وللاتعاظ بالمواقف والحوادث لأخذ العبرة

(١). انظر: البداية والنهاية (٥٦١-٥٧١)، والكامل في التاريخ (٢٧٤/١-٢٧٥).

والعظة منها، فإن قصص القرآن لم تسق عبثاً، وإنما غرضها أعظم من أن تكون مجرد قصة تسرد، ولنا في قصة أصحاب الكهف الدروس العظيمة منها:

١. الجهر بالحق والإيمان دون الخوف من الكافرين.
٢. الفرار من الشرك والفتن واللجوء الي الله.
٣. عظم التوكل على الله مع عظم الثقة بنصره وعظم الاعتماد عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
٤. أن قدرة الله تعالى على كل شيء فوق تصور البشر.
٥. دلائل البعث والنشور.
٦. فائدة مصاحبة الأخيار.
٧. شدة الحاجة والأوقات العصبية لا تجبر صاحبها على اختيار إلا الحلال والمباح من المأكل والمشرب.
٨. الشباب ضربوا أهم الأمثلة في الإيمان بالله والجرأة في نشر التوحيد.
٩. هداية واستقامة هؤلاء الشباب الغابرين تلفت العقول وتشدها للمعرفة.

أصحاب الجنة



نسبهم

كانوا إخوة من بني إسرائيل، وعن السدي قال: كان قوم باليمن^(١).

موقعهم الجغرافي

جنة تبعد ستة أميال عن صنعاء، وكان هذا البستان باليمن يقال له: الضَّروان دون صنعاء بفرسخين، يطؤه أهل الطريق^(٢).

صفاتهم

كانوا بخلاء، جهلاء^(٣).

حياتهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنُؤْتِيهِمْ كَمَا يَلُونَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَنْوُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَنَى رَبَّنَا أَن يَبْدِلَ آخِرَهَا مِنَّا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

قال ابن عباس: هم كفار قريش. فضرب تعالى لهم مثلاً بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار، التي قد انتهت واستحقت أن تجدد، وهو الصرام، ولهذا قال: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ فيما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾، أي: ليجدنها، وهو الاستغلال ﴿مُصْبِحِينَ﴾، أي: وقت الصبح، حيث لا يراهم فقير ولا محتاج، فيعطوه شيئاً، فحلفوا على ذلك، ولم يستثنوا في يمينهم، فعجزهم الله، وسلط عليها الآفة التي أحرقتها، وهي السفعة

(١). انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/٢٤٤)، تفسير القرطبي (١٨/٢٠٩).

(٢). انظر: البدء والتاريخ (١/١٦٤)، وتفسير البغوي (٨/١٩٤)، وتفسير الثعلبي (١/٢٣٤٧).

(٣). انظر: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (١٨/٢٠٩).

التي اجتاحتها، ولم تبق بها شيئاً ينتفع به، ولهذا قال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ (١٩) ﴿فَاصْبَحَ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩-٢٠]، أي: كالليل الأسود المنصرم من الضياء، وهذه معاملة بنقيض المقصود ﴿فَنَادَاؤُا مُّصِيبِينَ﴾ [القلم: ٢١]، أي: فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضاً قائلين: ﴿أَن أَعْدُوا عَلَىٰ حَرْفِكُمْ إِن كُنتُمْ صَرِيمِينَ﴾ [القلم: ٢٢]، أي: باكروا إلى بستانكم فاصرموه. قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ﴾ [القلم: ٢٣]، أي: يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مَّرْصُكُم﴾ [القلم: ٢٤]، أي: اتفقوا على هذا واشتوروا عليه ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْفٍ قَدِيرٍ﴾ [القلم: ٢٥]، أي: انطلقوا مجدين في ذلك قادرين عليه، مصممين مصرين على هذه النية الفاسدة. وقال عكرمة والشعبي: ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، أي: غضب على المساكين. فلما رأوها، أي: وصلوا إليها، ونظروا ما حل بها، وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة، بعد تلك النظرة والحسن والبهجة، فانقلبت بسبب النية الفاسدة، فعند ذلك ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ [القلم: ٢٦]، أي: قد تهنا عنها، وسلكنا غير طريقها. ثم قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ [القلم: ٢٧]، أي: بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا، وحرمنا بركة حرثنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ هو أعدلهم وخيرهم: ﴿أَلَزَأْلَ لَكُمْ زُولا تَسْخُونَ﴾ [القلم: ٢٨]، تقولون خيراً بدل ما قلتم من الشر ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٩) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوُمُونَ﴾ (٣٠) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩-٣١]، فندموا حيث لا ينفع الندم، واعترفوا بالذنب بعد العقوبة، وذلك حيث لا ينجع، وقد قيل: إن هؤلاء كانوا إخوة، وقد ورثوا هذه الجنة عن أبيهم، وكان يتصدق منها

كثيراً، فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم، وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً، فعاقبهم الله أشد العقوبة، ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار، وحث على ذلك يوم الجداد، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [القلم: ٣٣]، أي: هكذا نعذب من خالف أمرنا، ولم يعطف على المحاويع من خلقنا ﴿وَلْعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]، أي: أعظم وأطم من عذاب الدنيا لو كانوا يعلمون.

وقصة هؤلاء شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣]. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ^(١).

وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم، فقابلوه بالكذب والمخالفة. وقال ابن عباس: هم كفار قريش فضرَبَ تعالى لهم مثلاً بأصحاب الجنة، المشتملة على أنواع الزروع والثمار، التي قد أينعت، واستحقت أن تجد، وهو الصرام. والجنة كانت لرجل فمات، فورثة ثلاثة بنين له.

(١). انظر: البداية والنهاية (٥٧٨/٢-٥٨١).

كانوا قومًا باليمن، وكان أبوهم رجلًا صالحًا، وكان إذا بلغ ثماره أتاها المساكين، فلم يمنعهم من دخولها، وأن يأكلوا منها ويتزودوا، فلما مات قال بنوه بعضهم لبعض: علام نعطي أموالنا هؤلاء المساكين؟! تعالوا فلندلج فنصرم منها قبل أن يعلم المساكين، ولم يستنوا، فانطلقوا وبعضهم يقول لبعض خفتا: لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. يعني لنجذبها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكين ولا يستثنون. يعني لم يقولوا: إن شاء الله.

فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم، فقالوا: قل المال وكثر العيال، فتحالفوا بينهم، ليغدون غدوة قبل خروج الناس، ثم ليصر منها إذا أصبحوا بسدفة من الليل، لثلاث ينتبه المساكين لهم.

فهم كانوا قومًا مستمسكين بسرائع الإنجيل، فإذا كان أيام صرامهم، نادوا في الفقراء والمساكين، فكان لهم ما أسقط الطير، وأخطأ المنجل، وغير بذلك زمان حتى هلك الآباء والأولاد والأنبياء، فبخلوا بذلك، وقطعوا بذلك العادة، فأهلك الله جنتهم، وأعقبهم الندامة والحسرة^(١).

(١). انظر: معالم التنزيل: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبدالله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع (١٩٤/٨-١٩٥)، والبدء والتاريخ (١٤٦/١)، وتفسير القرطبي (٢٠٩/١٨).

العبر والعظات المستفادة

قصة أصحاب الجنة لم يرد ذكرها في أي من الكتب السماوية السابقة، فهي رسالة من الله فيها من العظات والدروس التي تنفع المسلمين:

١. ضرورة محاربة الإنسان في ذاته أمراض شح النفس والبخل.

٢. إن الابتلاء كما يكون بالشر يكون بالخير، فليست إفاضة المال والجاه والسلطان هي دومًا من علامات رضا الله.

٣. شكر الله تعالى على النعمة ليس فقط باللسان، وإنما لابد أن يكون بالفعل وأداء الحقوق.

٤. الغفلة عن رقابة الله تعالى، وعدم محاسبة النفس سبب للهلاك في الدنيا قبل الآخرة.

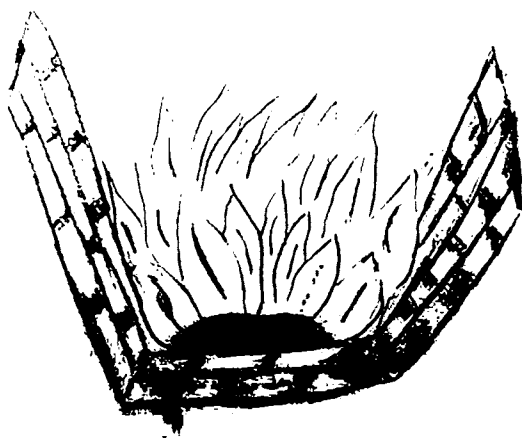
٥. بيان الفرق بين خسارة الدنيا التي قد تعوض، وبين خسارة الآخرة التي لا تعوض أبدًا، والعياذ بالله.

٦. التنبيه لإيقاظ الضمائر من غفلتها وإحيائها من أجل التوبة والرجوع عن الذنب طاعة لله تعالى.

٧. أداء حق الله، هو من شكر النعم، ووجه من التكافل في المجتمع الإسلامي.

٨. إن الله علام الغيوب، لا يخفي عليه شيء.

أصحاب الأخدود



نسبهم

ذكر أبو الحسن الشباني في كتابه: أن ملك من ملوك حمير يقال له: ذو نواس، واسمه يوسف بن شرحبيل^(١).

موقعهم الجغرافي

كان الأخدود بنجران^(٢)، وإلى الآن بقيت آثار الأخدود، ويعد الأخدود من الأماكن التاريخية في المملكة العربية السعودية

صفاتهم

قوة الايمان بالله

حياتهم

قال الله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعُلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِمَّا لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝﴾ [البروج: ١-١٠].

وعن صهيب، أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر، قال للملك: إني قد كبرت سني، وحضر أجلي، فادفع إلي غلاماً فلا أعلمه السحر. فدفع إليه غلاماً

(١). انظر: الكامل في التاريخ: أبو الحسن الشيباني (٣٣١/١).

(٢). انظر: المرجع السابق.

فكان يعلمه السحر، وكان بين الملك وبين الساحر راهب، فأتى الغلام على الراهب، فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك، فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك، فقل: حبسني الساحر.

قال: فيينا هو ذات يوم، إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة، قد حبست الناس، فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلى الله، أم أمر الراهب. قال: فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يجوز الناس. ورماها فقتلها، ومضى فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ. فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، وسائر الأدواء ويشفيهم.

وكان جليس للملك فعمي، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني، ولك ما ها هنا أجمع. فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله ﷻ، فإن آمنت به، ودعوت الله شفاك، فأمن، فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك، فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي. قال: أنا؟ قال: لا. ربي وربك الله. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فلم يزل يعذبه، حتى دل على الغلام، فأتى به، فقال: أي بني، بلغ من سحر ك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء، قال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله ﷻ،

قال: أنا؟ قال: لا، قال: أو لك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. قال: فأخذه أيضًا بالعذاب، ولم يزل به حتى دل على الراهب، فأتي بالراهب، فقال: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه.

وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فدهدهوه، فذهبوا به، فلما علوا الجبل، قال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل، فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس، حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فأغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت. فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.

ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي، حتى تفعل ما أمرك به، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتي، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهمًا من كناتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام. فإنك إذا فعلت ذلك قتلتي. ففعل، ووضع السهم في كبد القوس، ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام. فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم، ومات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقليل للملك: أرايت ما كنت تحذر، فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك، فحضر فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها. وقال: فكانوا يتعادون فيها، ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكانها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه، فإنك على الحق^(١). وكانت امرأة مؤمنة، وكان لها ثلاثة بنين: أحدهم رضيع، فقال لها الملك: ارجعي، وإلا قتلتك أنت وأولادك. فأبت، فألقى ابنها الكبيرين، فأبت، ثم أخذ الصغير ليلقيه، فهتت بالرجوع، قال لها الرضيع: يا أماه لا ترجعي عن دينك، لا بأس عليك. فألقاه، وألقاها في إثره.

وقد أورد محمد بن إسحاق هذه القصة على وجه آخر، فقال: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب، وحدثني أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها: أن أهل نجران كانوا أهل شرك، يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران. ونجران هي القرية العظمى التي إليها جماع أهل تلك البلاد، ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها فيميون. ولم يسموه لي بالاسم الذي سماه ابن منبه، قالوا: رجل نزلها، فابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي فيها الساحر، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر، يعلمهم السحر، فبعث الثامر ابنه عبدالله بن الثامر مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مر

(١). أخرجه مسلم (٢٢٩٩/٤) رقم (٣٠٠٥).

بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته، فجعل يجلس إليه، ويسمع منه، حتى أسلم، فوحد الله وعبد، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام، حتى إذا فقه فيه، جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه فكتمه إياه. وقال له: يا ابن أخي إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه.

والثامر أبو عبدالله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر، كما يختلف الغلمان، فلما رأى عبدالله أن صاحبه قد ضن به عنه، وتخوف ضعفه فيه، عمد إلى قداح فجمعها، ثم لم يبق لله اسمًا يعلمه إلا كتبه في قداح، لكل اسم قداح، حتى إذا أحصاها، أوقد نارًا، ثم جعل يقذفها، قداحًا قداحًا، حتى إذا مر بالاسم الأعظم، قذف فيها بقداحه، فوثب القداح حتى خرج منها، لم تضره شيئًا فأخذه، ثم أتى به صاحبه، فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم، الذي قد كتمه، فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع، قال: أي ابن أخي قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.

فجعل عبدالله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدًا به ضرر، إلا قال: يا عبد الله أتوحد الله، وتدخل في ديني، وأدعو الله لك فيعافيك عما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم، فيوحد الله ويسلم، ويدعو له، فيشفى. حتى لم يبق بنجران أحد به ضرر، إلا أتاه، فاتبعه على أمره، ودعا له فعوفي، حتى رفع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال: أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأمثلن بك. قال: لا تقدر على ذلك، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح على رأسه، فيقع إلى

الأرض ما به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران، بحور لا يلقي فيها شيء إلا هلك، فيلقى به فيها، فيخرج ليس به بأس، فلما غلبه، قال له عبدالله بن الثامر: إنك والله لا تقدر على قتلي، حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت سلطت عليّ فقتلتني، قال: فوحد الله ذلك الملك، وشهد شهادة عبدالله بن الثامر، ثم ضربه بعصا في يده، فشجّه شجرة غير كبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه، واستجمع أهل نجران على دين عبدالله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكمه، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب، وبعض أهل نجران عن عبدالله بن الثامر، فالله أعلم أي ذلك كان.

قال: فسار إليهم ذو نواس بجنده فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاخترأوا القتل، فخدوا الأخدود، وحرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثل بهم، فقتل منهم قريباً من عشرين ألفاً، ففي ذي نواس، وجنده أنزل الله على رسوله: ﴿قِيلَ اصْحَبْ الْأَخْدُودَ﴾ ^(١) **النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ** [البروج: ٤-٥]، الآيات. وهذا يقتضي أن هذه القصة غير ما وقع في سياق مسلم.

وقد زعم بعضهم: أن الأخدود وقع في العالم كثيراً، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو اليمان أنبأنا صفوان عن عبدالرحمن بن جبير قال: كانت الأخدود في اليمن زمان تبع، وفي القسطنطينية زمان

قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، واتخذ أتوناً، وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفي العراق في أرض بابل في زمان بختنصر حين صنع الصنم، وأمر الناس فسجدوا له فامتنع دانيال، وصاحبه عزريا ومشاييل، فأوقد لهم أتوناً، وألقى فيها الحطب والنار، ثم ألقاهم فيه، فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً، وأنقذهم منها، وألقى فيها الذين بغوا عليه، وهم تسعة رهط فأكلتهم النار.

وقال أسباط عن السدي في قوله: ﴿قِيلَ انْحَبِ الْأَعْدُودَ﴾. قال: كان الأعْدود ثلاثة: خد بالشام، وخد بالعراق، وخد باليمن^(١).

العبر والعظات المستفادة

قصة أصحاب الأعْدود تحمل في ثناياها معان عظيمة، وفوائد جلية وأفكاراً بناءة، فهي تؤكد على أهمية الدعوة لله بكل الطرق ولو بغلام صغير، لعله يقوم بما لم يقم به الكبار، ومن هذه المعاني:

١. أهمية تربية النشأ، فهم اللبنة الأولى لبناء المجتمع، فبصلاحهم تصلح الأمة وتنهض من كبوتها.

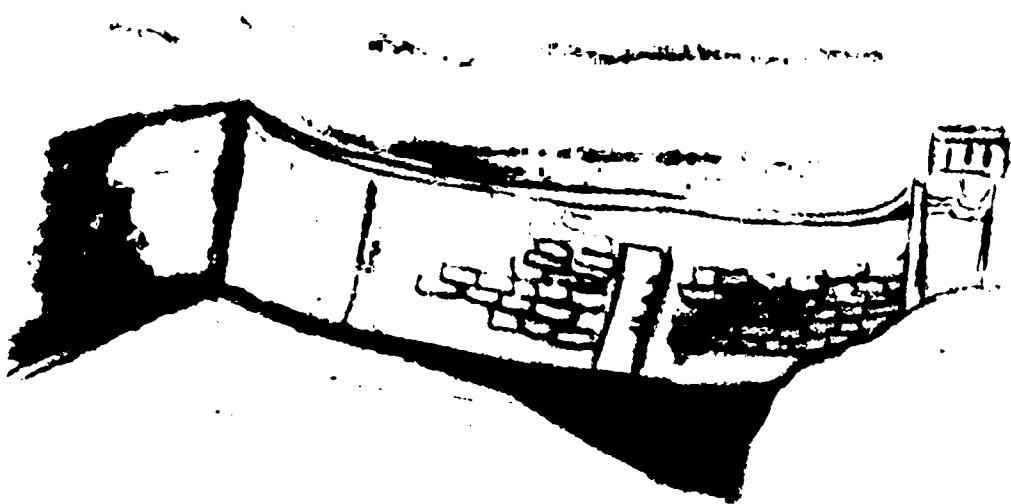
(١). انظر: البداية والنهاية (٢٣/٣-٣٠)، والكامل في التاريخ (٣٣١/١-٣٣٢)، وتفسير ابن كثير (٣٦٢/٨-٣٧٣).

٢. وجود الشرف في كل زمان ومكان، ومحاربة الصالحين وكنم أصواتهم، والطغاة هم الذين يتولون هذه المعركة لإسكات الحق، ولم يعلموا أن الله يدبر لدينه وعباده الصالحين.
٣. الثقة بالله، والدعاء المستمر، والايمان بأن نصر الله قادم.
٤. صفة الثبات على المبدأ، من أهم الصفات التي يجب أن يتمتع بها الإنسان المسلم في عصرنا هذا، وفي كل العصور.



السييل العرم

(قوم تبع، قوم سبا، سد مأرب)



نسبهم

سبأً قبيلة معروفة في أداني اليمن.

موقعهم الجغرافي

مسكنهم بلدة يقال لها (مأرب)^(١).

صفاتهم

الكفر بنعم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ، وعبادة غيره.

حياتهم

قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٩].

قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب ابن يعرب بن قحطان، قالوا: وكان أول من سبى في العرب، فسمي سبأً لذلك، وكان يقال له: الرائش، لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه. قال السهيلي: ويقال: إنه أول من تتوج. وذكر بعضهم: أنه كان مسلمًا، وكان له شعر بشر فيه بوجود رسول الله ﷺ، فمن ذلك قوله:

سيملك بعدنا ملكا عظيما نبي لا يرخص في الحرام
ويملك بعده منهم ملوك يدينون العباد بغير ذام
ويملك بعدهم منا ملوك يصير الملك فينا باقتسام

(١). انظر: تفسير السعدي (١/٦٧٧).

ويملك بعد قحطان نبي تقي خبته خير الأنام
يسمى أحمدا يا ليت أني أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصري بكل مدحج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه ومن يلقاه يبلغه سلامي
حكاه ابن دحية في كتابه (التنوير في مولد البشير النذير).

وعبدالله بن العباس يقول: إن رجلاً سأل النبي ﷺ، عن سبأ:
ما هو؟ أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل ولد عشرة، فسكن
اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمدحج،
وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير. وأما الشامية: فلخم،
وجذام، وعاملة، وغسان»^(١).

والمقصود: أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها، وقد كان فيهم التبابعة
بأرض اليمن، واحدهم تبع، وكان لملوكهم تبعان يلبسونها وقت
الحكم، كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك، وكانت العرب
تسمي كل من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تُبَعًّا، كما يسمون من
ملك الشام مع الجزيرة قيصرًا، ومن ملك الفرس كسرى، ومن ملك
مصر فرعون، ومن ملك الحبشة النجاشي، ومن ملك الهند بطليموس،
وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس، وقد قدمنا قصتها

(١). أخرجه أحمد (٧٥/٥ رقم ٢٨٩٨)، وفي فضائل الصحابة (٨٦٥/٢ رقم ١٦١٦)،
والحاكم (٤٥٩/٢ رقم ٣٥٨٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه
الذهبي. وحسنه محققو المسند.

مع سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارة، وثمار وزروع كثيرة، وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد، فلما بدلوا نعمة الله كفراً، أحلوا قومهم دار البوار.

والمقصود: أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال، وسجدوا للشمس من دون الله، وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضاً، واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم، كما قال تعالى ﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْثِلٍ خَمْطٍ وَأَنْثَىٰ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ﴾ [سبأ: ١٦-١٧].

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين وغيرهم: أن سد مأرب كان صنعته، أن المياه تجري من بين جبلين، فعمدوا في قديم الزمان فسدوا ما بينهما، ببناء محكم جدًّا، حتى ارتفع الماء، فحكم على أعالي الجبلين، وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة، وزرعوا الزروع الكثيرة. ويقال: كان أول من بناه سبأ بن يعرب، وسلط إليه سبعين واديًا يفد إليه، وجعل له ثلاثين فريضة يخرج منها الماء، ومات ولم يكمل بناؤه، فكملمته حمير بعده، وكان اتساعه فرسخًا في فرسخ، كانوا في غبطة عظيمة، وعيش رغيد، وأيام طيبة. حتى ذكر قتادة وغيره: أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها، فيمتلئ من الثمار مما يتساقط فيه من نضجه وكثرته، وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الدواب المؤذية، لصحة هوائهم، وطيب فنائهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِن

رَزَقَ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿سبأ: ١٥﴾، وكما قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبَّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

فلما عبدوا غير الله، وبطروا نعمته، وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم، وطيب ما بينها من البساتين، وأمن الطرقات، سألوا أن يباعد بين أسفارهم، وأن يكون سفرهم في مشاق وتعب، وطلبوا أن يبدلوا بالخير شرًا، كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى: البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل، فسلبوا تلك النعمة العظيمة، والحسنة العميمة، بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد، كما قال تعالى ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦]، قال غير واحد: أرسل الله على أصل السد الفار، وهو الجرذ، ويقال: الخلد. فلما فطنوا لذلك، أرصدوا عندها السنائير، فلم تغن شيئًا، إذ قد حم القدر، ولم ينفع الحذر، كلا لا وزر. فلما تحكم في أصله الفساد سقط وانهار، فسلط الماء القرار، فقطعت تلك الجداول والأنهار، وانقطعت تلك الثمار، وبادت تلك الزروع والأشجار، وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والأثمار، كما قال العزيز الجبار ﴿وَيَذَلُّهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ﴾ [سبأ: ١٦]، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو الأراك، وثمره البربر، وأثل وهو الطرفاء.

وقيل: يشبهه، وهو حطب لا ثمر له ﴿وَشَقِئٌ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]، وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلًا، مع أنه ذو شوك كثير، وثمره بالنسبة إليه، كما يقال في المثل: لحم جمل غث، على

رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل^(١). ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ [سبأ: ١٧]، أي: إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا، وكذب رسلنا، وخالف أمرنا، وانتهك محارمنا، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]، وذلك أنهم لما هلكت أموالهم، وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها، وينتقلوا عنها، ففارقوا في غور البلاد ونجدها، أيدي سبأ شذر مذر، فنزلت طوائف منهم الحجاز، وهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة، ومنهم المدينة النبوية اليوم، فكانوا أول من سكنها، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، فحالفوا الأوس والخزرج، وأقاموا عندهم، ونزلت طائفة أخرى منهم الشام، وهم الذين تنصروا فيما بعد، وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب (السيرة): أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم عمرو بن عامر اللخمي، وكان سبب خروجه من اليمن: أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب، الذي كان يحبس عليهم الماء، فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على النقلة عن اليمن، فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه، أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به. فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي، وعرض أمواله، فقال أشراف

(١). هذه الأوصاف وردت في حديث أم زرع، الذي أخرجه البخاري (٢٧/٧ رقم ٥١٨٩)، ومسلم (١٨٩٦/٤ رقم ٢٤٤٨).

من أشراف اليمن: اغتنموا غضبة عمرو، فاشتروا منه أمواله. وانتقل في ولده وولد ولده. وقالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم، وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين، يرتادون البلدان فحاربتهم عك، فكانت حربهم سجلاً.

قال: فارتحلوا عنهم، ففترقوا في البلاد، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزل الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مراد، ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عمان عمان، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه، وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات. وقال غيره: كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة، فأخبرت بقرب هلاك بلادهم، وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر، الذي سلط على سدهم، ففعلوا ما فعلوا. والله أعلم.

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن، لما أصيبوا بسيل العرم، بل أقام أكثرهم بها، وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السد، ففترقوا في البلاد، وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس: أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن، بل إنما تشاءم منهم أربعة، وبقي باليمن ستة، وهم مذحج وكندة وأنمار والأشعريون، وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة وحمير، فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن، واستمر فيهم الملك والتبابعة، حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميره أبرهة وأرياط، نحوًا من سبعين سنة، ثم استرجعه سيف بن ذي يزن الحميري، وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل. ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن عليًا وخالد بن الوليد، ثم أبا موسى الأشعري

ومعاذ بن جبل، كانوا يدعون إلى الله تعالى، ويبينون لهم الحجج، ثم تغلب على اليمن الأسود العنسي، وأخرج نواب رسول الله ﷺ منها، فلما قتل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها في أيام أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

العبر والعظات المستفادة

١. وجوب امتثال أمر الله وطاعته، واجتناب نهيه ومعصيته.
٢. جحود ونكران النعم دون الرجوع للحق وشكر النعم، لأن الله يمهل ولا يهمل، فهم كانوا في رغد من العيش، وسعة في الرزق، وطيب في المكان، وكانوا مستمرين في جحدهم لفضل ربهم، فأمهلوا، ثم نزلت بهم عقوبة الله.
٣. الصبر على طاعة الله، وما يترتب عليها من تكاليف، فإن عاقبة الصبر حسنة في الدنيا والآخرة.
٤. عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما نزلت بقوم عقوبة إلا بسبب ذنوبهم، والتهاون في شأن دين الله.
٥. حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد يسلط أضعف المخلوقات على أعتى الخلق.

(١). انظر: البداية والنهاية (١٠٧/٣-١١٦).

الروم



نسبهم

سميت الروم باسم جدهم، وهو روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم. وهم قبيلة عظيمة من ولد رومي بن يونان بن علجان بن يافث بن نوح عَلَيْهِ السَّلَام. وقيل: من ولد يافان بن يافث، وقيل: من ولد روعويل بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام^(١).

موقعهم الجغرافي

مقرهم الشام^(٢).

صفاتهم

كفار، من أهل الكتاب. وهم جيل من الناس معروف: كالعرب، والفرس، والزنج، وغيرهم، والروم: الذين تسميهم أهل هذه البلاد الإفرنج. قال الإمام الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ: هم جيل من ولد روم بن عيصو بن إسحاق، غلب اسم أبيهم عليهم، فصار كالاسم للقبيلة، قال: وإن شئت هو جمع رومي، منسوب إلى روم بن عيصو، كما يقال: زنجي وزنج، ونحو ذلك^(٣).

(١). انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (١/١٤٣٧).

(٢). انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٥/٣٢٢).

(٣). انظر: تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣/١٣٠).

حياتهم

كانت الفرس والروم في ذلك الوقت أيام بعثة الرسول ﷺ من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة.

وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب يتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون يحبون ظهور الفرس على الروم. فظهر الفرس على الروم فغلبوهم غالبًا لم يحط بملكهم بل بأدنى أرضهم، وفرح بذلك مشركو مكة، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ تسع أو ثمان، ونحو ذلك، مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم، ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر. ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤-٥]، أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفارًا، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، حيث قيض

لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب. ﴿أَذَى الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٣]: بلاد الشام والعراق، لأنها أقرب البلاد إلى مكة. ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]: من بعد ما غلبوا. ﴿فِي بَضْعِ سِنِيكَ﴾ [الروم: ٤]: البضع ما بين الثلاثة الى العشرة. ظاهر الحياة الدنيا: هو كل ما يشاهد ويدرك بالحواس.

كانت الدولة الرومانية والدولة الفارسية أعظم دول العالم في عصر النبي ﷺ، وكانت الحروب بينا دائمة. وفي عصر كسرى أبرويز نشطت الدولة الفارسية، وانتصرت على الروم، واستولت على جميع ممتلكاتهم في العراق وبلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى. يومذاك تقلصت الإمبراطورية الرومانية في عاصمتها، وسدت عليها جميع الطرق في حصار اقتصادي قاس، وعم القحط، وفشت الأمراض البوائية. وأخذ الفرس يستعبدون الرعايا الروم، ويستبدون بهم، للقضاء على المسيحية، فدمروا الكنائس، وأخذوا خشبة الصليب المقدس، وأرسلوها الى المدائن. وأراقوا دماء ما يقرب من مئة ألف من السكان المسيحيين. وأوشكت الإمبراطورية الرومانية على الانهيار.

في هذه الحقبة كان المسلمون في مكة في أصعب أيامهم، وأشدّ محتتهم، وفي حالة من الضعف والضعف لا يمكن تصوُّرها. وقد فرح المشركون بنصر الفُرس، لأنهم وثنون مثلهم، وحزن المسلمون باندحار الروم، لأنهم أهل كتاب. وقال المشركون شامتين: لقد غلب

إخواننا إخوانكم، وكذلك سوف نقضي عليكم، إذا لم تتركوا دينكم الجديد هذا.

﴿الْعَمَّ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَقْلَبُونَ ۝ فِي يَضِيعُ سِنِينَ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ١-٤]. يقول المؤرخ البريطاني (جيون) في كتابه (تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) تعليقاً على نبوءة القرآن هذ: «في ذلك الوقت حين تنبأ القرآن بهذا لم تكن آية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن السنين الاثني عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية»^(١).

لما سمع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الآيات خرج إلى المشركين، فقال لهم: أفرحتم بظهور إخوانكم الفرس، فوالله لتظهرنَّ الروم على فارس، كما أخبرنا بذلك نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقام إليه أبي بن خلف، فقال له: كذبت. فقال أبو بكر: أنت كذبت يا عدو الله. اجعل بيننا أجلاً أراهنك على عشر قلائص مني وعشرٍ منك، فإن ظهرت الروم على فارس ربحتُ أنا الرهان، وإن ظهرت فارس ربحت أنت الرهان. ثم جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأخبره، فقال الرسول الكريم: زايده في الرهان، وماده في الأجل.

فخرج أبو بكر، فلقي أبي بن خلف، فقال له: لعلك ندمت؟ فقال: لا. فقال أبو بكر: تعالى أزايدك في الرهان، وأمادك في الأجل، فاجعلها

(١). (٧٤/٥).

مئة قلوصل إلى تسع سنين. قال: قد فعلت. وقد قتل أبي في معركة أُحُد. ولما ظهرت الروم على الفرس، واستعادوا بلادهم، وصدقت نبوءة القرآن، أخذ أبو بكر مئة ناقة من ورثة أبي، وتصدق بها، وهذا كان قبل تحريم الميسر^(١).

العبر والعظات المستفادة

١. لله الأمر أولاً وآخرًا، من قبل الغلبة، ومن بعد الغلبة، فكل ذلك بأمر الله وإرادته، فليس ثمة شيء إلا بقضائه وتقديره.

٢. غلبة الغالب، وخذلان المغلوب، بأمر الله وقضائه.

٣. على المسلم الفرح إذا وجد طائفة من المسلمين وإن كانوا متلبسين ببدعة أن يفرح لهم إذا حققوا انتصارًا على أعدائهم من اليهود والنصارى.

٤. ألا يخذل المسلم أخاه وإن اختلف معه، ولو لم يكن على طريقته، طالما أنه على الإسلام ولم يخرج من دائرته.

(١). انظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان: سبط ابن الجوزي، (١١٦/٣-١١٨)، وبهجة المحافل وبغية الأمثال في تلخيص المعجزات والسير والشئائل: يحيى بن أبي بكر العامري الحرضي، دار صادر، بيروت (١١٣/١).

أصحاب الفيل



نسبهم

هم أصحاب أبرهة بن الصباح أبي يكسوم، ويقال: أبرهة هو الأشرم، سمي بذلك لأنه تفتان مع أرباط حتى تراحفا، ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما، فمن غلب فله الأمر، فتبارزا، وكان أرباط جسيماً عظيماً، في يده حربة. وأبرهة قصيراً حادراً حليماً، ذا دين في النصرانية، ومع أبرهة وزير له، يقال له: عتودة. فلما دنوا ضرب أرباط بحريته رأس أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته، فلذلك سمي الأشرم^(١).

موقعهم الجغرافي

اليمن، صنعاء^(٢).

صفاتهم

الكبر، والعدوان.

حياتهم

قال تعالى: ﴿الَّذِي تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ﴾^(١) **الَّذِي يَجْعَلُ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ**^(٢) **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ**^(٣) **تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ**^(٤) **فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**^(٥) ﴿[الفيل: ١-٥]﴾.

(١). انظر: تفسير ابن كثير (٤٤٨/٨)، وتفسير القرطبي (١٧٤/٢٠).

(٢). انظر: المرجع السابق (٤٤٨/٨).

إن أبرهة بنى القليس بصنعاء، فبنى كنيسة لم يُر مثلاً في زمانها بشيء من الأرض، وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك كنيسة، لم بين مثلاً لملك كان قبلك، ولست بمتمته حتى أصرف إليها حج العرب.

فذكر السهيلي: أن أبرهة استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة الخسيسة، وسخرهم فيها أنواعاً من السخر، وكل من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس، يقطع يده لا محالة، وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً، وأحجاراً، وأمتعة عظيمة، وركب فيها صلباناً من ذهب، وفضة، وجعل فيها منابر من عاج، وآبنوس، وجعل ارتفاعها عظيمًا جدًّا، واتساعها باهرًا، فلما هلك بعد ذلك أبرهة، وتفرقت الحبشة كان من تعرض لأخذ شيء من بنائها، وأمتعتها أصابته الجن بسوء، وذلك لأنها كانت مبنية على اسم صنمين: كعيب وامراته. وكان طول كل منهما ستون ذراعًا، فتركها أهل اليمن على حالها، فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح، أول خلفاء بني العباس، فبعث إليها جماعة من أهل العزم والحزم والعلم، فنقضوها حجرًا حجرًا، ودرست آثارها إلى يومنا هذا.

قال ابن إسحاق: فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي غضب رجل من النساء من كنانة، الذين ينسئون الشهر الحرام إلى الحل بمكة أيام الموسم. قال ابن إسحاق: فخرج الكناني حتى أتى القليس، فقعده فيه، أي أحدث، حيث لا يراه أحد، ثم خرج فلقح بأرضه، فأخبر أبرهة بذلك، فقال: من صنع هذا؟ فقليل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحجه العرب بمكة، لما سمع بقولك: أنك تريد أن تصرف

حج العرب إلى بيتك هذا. فغضب فجاء فقعد فيها، أي أنه ليس لذلك بأهل، فغضب أبرهة عند ذلك، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، ثم أمر الحبشة، فتهيأت وتجهزت ثم سار، وخرج معه بالفيل.

وسمعت بذلك العرب فأعظموه، وفضعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن، وملوكهم، يقال له: ذو نفر. فدعا قومه، ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخراجه. فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له، فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر، فأتي به أسيراً، فلما أراد قتله، قال له ذو نفر: يا أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من القتل. فتركه من القتل، وحبسه عنده في وثاق، وكان أبرهة رجلاً حليماً، ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له حتى إذا كان بأرض خثعم، عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم، وهما: شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيراً، فأتي به، فلما هم بقتله، قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني، فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهس بالسمع والطاعة. فخلى سبيله، وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف، خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف، فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك

خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد، يعنون اللات. إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم.

قال ابن إسحاق: واللات بيت لهم بالطائف، كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة. قال: فبعثوا معه أبا رغال يدلّه على الطريق إلى مكة، فخرج أبرهة، ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجمت قبره العرب. فهو القبر الذي يرمي الناس بالمغمس، وقد تقدم في قصة ثمود: «أن أبا رغال كان رجلاً منهم، وكان يمتنع بالحرم، فلما خرج منه أصابه حجر فقتله، وأن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «وآية ذلك أنه دفن معه غصنان من ذهب». فحفروا، فوجدوهما، قال: «وهو أبو ثقيف»^(١).

قلت: والجمع بين هذا وبين ما ذكر ابن إسحاق: أن أبا رغال هذا المتأخر وافق اسمه اسم جده الأعلى، ورجمه الناس، كما رجموا قبر الأول.

قال ابن إسحاق: فلما نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلاً من الحبشة، يقال له: الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهتت قريش وكنانة وهذيل، ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وقال له: سل عن سيد أهل هذا

(١). سبق تخريجه.

البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به. فلما دخل حنطة مكة سأل عن سيد قريش، وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة. فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له حنطة: فانطلق معي إليه، فإنه قد أمرني أن آتیه بك. فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر، وكان له صديقًا حتى دخل عليه وهو في محبسه، فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك، ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشوًّا، ما عندي غناء في شيء مما نزل بك، إلا أن أنيسًا سائس الفيل صديق لي فسأرسلك إليه، وأوصيه بك، وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. فقال: حسبي. فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب غير مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رءوس الجبال، وقد أصاب له الملك مئتي بعير فاستأذن له عليه، وانفعه عنده بما استطعت. قال: أفعل. فكلّم أنيس أبرهة، فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب غير مكة، وهو الذي يطعم الناس بالسهل والوحوش في رءوس الجبال. فأذن له عليك فليكلّمك في حاجته. فأذن له أبرهة، قال: وكان

عبد المطلب أو سم الناس وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجله، وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك. فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يرد عليَّ الملك مئتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك، ودين آبائك، قد جئت لأهدمه، لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًا سيمنعه. فقال: ما كان ليمنع مني. قال: أنت وذاك. فرد على عبد المطلب إبله.

ويقال: إنه كان قد دخل مع عبد المطلب على أبرهة يعمر بن نفثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة سيد بني بكر، وخويلد بن واثلة سيد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة، على أن يرجع عنهم، ولا يهدم البيت، فأبى عليهم ذلك، فالله أعلم، أكان ذلك أم لا.

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في رءوس الجبال، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، يتحرزون فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل، فلما أصبح أبرهة، تهيأ لدخول مكة، وهياً فيله، وعبى جيشه. وكان اسم الفيل محموداً، فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه، فقال: ابرك محمود، وارجع راشداً من حيث أتيت، فإنك في بلد الله الحرام، وأرسل أذنه، فبرك الفيل. قال السهيلي: أي سقط إلى الأرض، وليس من شأن الفيلة أن تبرك، وقد قيل: إن منها ما يبرك كالبعير، فالله أعلم.

وخرج نفيل بن حبيب يشدد، حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين، ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه، فبزغوه بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر، أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين، يتدرون الطريق التي منها جاءوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن.

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعها منه مدة تمت قيحاً ودمًا، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

فلما بعث الله محمدًا ﷺ كان مما يعد الله على قريش من نعمته عليهم، وفضله ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ (٤) فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۖ (٥)﴾.

فلما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث عليهم طيرًا، أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مجزعة، حجرين في رجله، وحجرًا في منقاره، قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم، ثم صاحت، وألقت ما في رجلها، ومناكيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحًا شديدة، فضربت الحجارة، فزادتها شدة.

ثم ذكر ابن إسحاق ما قالت العرب من الأشعار في هذه الكائنة العظيمة، التي نصر الله فيها بيته الحرام، الذي يريد أن يشرفه ويعظمه ويطهره، ويوقره ببعثة محمد ﷺ، وما يشرع له من الدين القويم،

الذي أحد أركانها الصلاة، بل عماد دينه، وسيجعل قبلته إلى هذه الكعبة المطهرة، ولم يكن ما فعله بأصحاب الفيل نصرة لقريش، إذ ذاك على النصارى الذين هم الحبشة، فإن الحبشة إذ ذاك كانوا أقرب لها من مشركي قريش، وإنما كان النصر للبيت الحرام، وإرهاصًا وتوطئة لبعثة محمد ﷺ، والله أعلم^(١).

العبر والعظات المستفادة

ورود سورة في القرآن تحمل اسم قصة أصحاب الفيل بعدد آياتها القليلة، وعظيم مدلولها، وكبير حدثها، تحمل من العبر والعظات الكثير، ومنها:

١. إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجبٌ للعذاب.
٢. وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.
٣. بيان شرف الكعبة التي كانت تعظم حتى من قبل المشركين.

(١). انظر: البداية والنهاية (٣/١٣٩-١٥٧).

٤. أن القوة لله جميعاً، وأن قوى البشر مهما عظمت وبلغت تتضاءل أمام قوة الله، وأن البشر مهما تجبروا، ومهما أوتوا من قوة، فهم ضعاف أمام سلطان الله وقوته.
٥. الظلم عاقبته وخيمة، والمظلوم إذا دعا ربّه فإنّه ناصره، ولو كان كافراً.
٦. حفظ الله لبيته الحرام.



الخاتمة

أحمد الله وأشكره أن علمنا العلم، وبعث فينا من يعلمه ويورثه لنا،
وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين.

لقد أتممت بحمد الله كتابة فكرتي في هذه الأوراق المتواضعة، التي
لا تفي حق الموضوع، المستمد من أعظم المصادر: كتاب الله العظيم.

فالقرآن كلام الله تعالى، تكلم به سبحانه، ليجعله دستوراً ومنهج
حياة، ليأخذ بأيدي الناس ونواصيهم إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم
في الدنيا، وسعادتهم ونجاتهم في الآخرة، فهو كتاب هداية. والقصة
القرآنية إحدى هذه الوسائل، ولكي تحقق القصة في القرآن الغاية
الأساسية، فقد سيقّت لأغراض بين أسباب النجاة ويسرها وإتيانها،
وبين أسباب الدمار والهلاك وتجنبها.

والم تأمل في كتاب الله يجد الدعوات متعددة وملحة للنظر في
أحوال تلك الأمم، ودعوات للتأمل في حالهم، كيف كان؟ وما كانوا
عليه من الصلاح أو الفساد، وكيف كانت نهاياتهم بالخير أو الشر.
فأخذ العبرة والعظة من قصص القرآن من الأمور المهمة، التي تبين قيمة

القرآن الكريم، وأهميته في بناء الفرد والمجتمع والأمة بأكملها، حيث إنه مليء بالمواعظ والعبر النافعة الساطعة، التي تعلمنا من أخطاء الغير، وتثير طريقنا، وتبين سنة الله في خلقه، التي ينتصر بها الناس وينهزمون، ويمكننا أن نقف على هذا كله عبر القصص القرآني، ومنها قصص الأقوام أو قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم، فكل قصة نستطيع أن نستخرج منها منهج حياة، إن أحسننا الفهم، وأتقنا التدبر.

إن إخراج كتاب بكل هذه المعلومات ذات المرجع العظيم: قرآننا المجيد، ليس بالأمر الهين أو السهل، ولا يتم عمل مثل ذلك إلا بتوفيق الله، ومعاونة الأحبة، ممن سخرهم الله لنا، سواء بالمشاركة الفعلية أو المساندة المعنوية، فأكرر شكري لهم اعترافاً بفضلهم، وهم أهله.

ختاماً أحمد الله أن أعان ويسر لإخراج مثل هذا العمل، الذي أسأل الله تعالى القبول والمثوبة، أمل أن ينال هذا الكتاب استحسان قارئه، وأسأله سبحانه أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

يوسف عبد الله فيصل البركاتي

المراجع والمصادر

١. الإبانة الكبرى لابن بطة: أبي عبدالله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَرِي المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
٢. الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبدالله بن عبد المنعم الحميري، ت: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، دار السراج، ط ٢، ١٩٨٠ م.
٣. تفسير السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت.
٤. الأحاد والمثاني: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
٥. الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٦. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: مجير الدين الحنبلي العليمي، مكتبة دنديس، عمان، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٧. الإتقان في علوم القرآن: عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
٨. البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة ١٤٢٠هـ.
٩. البدء والتاريخ: المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر.
١٠. البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت: عبدالله ابن عبدالمحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١١. التسهيل لعلوم التنزيل: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: الدكتور عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
١٢. التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيميه من صحيحه، وشاذه من محفوظه: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، ترتيب: الأمير أبي الحسن علي بن بلبان بن عبدالله، علاء الدين الفارسي الحنفي، مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الألباني، دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٣. الدعوات الكبير: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُشْرُو جردى
الخراساني، أبوبكر البيهقي، تحقيق: بدر بن عبدالله البدر، غراس للنشر
والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
١٤. الرد على الجهمية: أبوسعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي
السجستاني: بدر بن عبدالله البدر، دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الثانية،
١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
١٥. السنة: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد
الشيباني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت،
الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
١٦. السنن الكبرى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني،
النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب
الأرنؤوط، قدم له: عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة،
بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
١٧. السنن الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُشْرُو جردى
الخراساني، أبوبكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب
العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
١٨. الشريعة: أبوبكر محمد بن الحسين بن عبدالله الأجرئي البغدادي، تحقيق:
الدكتور عبدالله بن عمر بن سليمان الدميحي، دار الوطن، الرياض،
السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
١٩. العظمة: أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف
بأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري،
دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٠. العقوبات: أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٢١. الغريبين في القرآن والحديث: أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعته: أ. د. فتحي حجازي، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
٢٢. الفتاوى الكبرى لابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحارثي الحنبلي الدمشقي، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
٢٣. الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني: أحمد ابن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.
٢٤. الفرج بعد الشدة للتنوشي: المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوشي البصري، أبو علي، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
٢٥. الفرج بعد الشدة: أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، خرجه وعلق عليه: أبو حذيفة عبيد الله بن عالية، دار الريان للتراث، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٢٦. الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٧. الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، ت: عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٥هـ، ط ٢.

٢٨. الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٢٩. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر بن أبي شيبة، عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩م.

٣٠. الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، ت: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٣١. المجالسة وجواهر العلم: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية الترية الإسلامية، البحرين، أم الحصم. ودار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ.

٣٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافى محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٣. المختصر في أخبار البشر: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى.

٣٤. المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

٣٥. المصنف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.

٣٦. المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: طارق ابن عوض الله ابن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.

٣٧. المعجم الصغير (الروض الداني): سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمير، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٣٨. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي ابن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية.

٣٩. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي، دار الساقية.

٤٠. الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي.

٤١. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.

٤٢. النهاية في الفتن والملاحم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: محمد أحمد عبدالعزيز، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
٤٣. آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، دار صادر، بيروت.
٤٤. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران.
٤٥. أصول الدين الإسلامي: محمد بن إبراهيم التويجري، دار العاصمة، الرياض، السعودية، النشرة الأولى ١٤١٤ هـ.
٤٦. أهل الفترة ومن في حكمهم: موفق أحمد شكري، تقديم: د. عباس محجوب ومحمد الخطيب، صححه: سمير أحمد العطار. أصل الكتاب: رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، إشراف د. عبدالعزيز الراجحي، مؤسسة علوم القرآن، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨ م.
٤٧. بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل: يحيى بن أبي بكر العامري الحرضي، دار صادر، بيروت.
٤٨. تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٩. تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ومعه: (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي)، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ.

٥٠. تفسير ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٥١. تفسير البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
٥٢. تفسير الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
٥٣. تفسير السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٥٤. تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ت: الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٥٥. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

٥٦. تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٥٧. تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٥٨. تفسير الواحدي

٥٩. تفسير عبدالرزاق: أبو بكر عبدالرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٦٠. تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٦١. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ.

٦٢. خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، حققه وخرج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٦٣. رحلة ابن بطوطة (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.

٦٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح ابن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٤٢٢ هـ.

٦٥. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٦٦. سنن ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٦٧. سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٦٨. سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

٦٩. شرح السنة: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٧٠. شرح مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١٤٩٤م.

٧١. شعب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جردى الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريره أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي، الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٧٢. صحيح ابن حبان: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٧٣. صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٧٤. صحيح الجامع الصغير وزياداته: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، المكتب الإسلامي.

٧٥. صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري

النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧٦. ضعيف الجامع الصغير وزيادته: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.

٧٧. ضعيف أبي داود - الأم: محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٧٨. عود على بدأ في جبلية اليهود: اللواء الركن (م) السيد يوسف بن عبد الله جمل الليل، تقرّظ سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، مكتبة التوبة، الرياض.

٧٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز ابن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩.

٨٠. فضائل الصحابة: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٨١. قصة الحضارة: ول ديورانت - ويليام جيمس ديورانت، تقديم: الدكتور محيي الدين صابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٨٢. قصص الأنبياء لأمام الحافظ بن كثير

٨٣. قصص القرآن، جمع وترتيب محمود المصري.

٨٤. كتاب الأربعون حديثاً: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الأجرى البغدادي، حققه وخرج أحاديثه: بدر بن عبدالله البدر، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٨٥. كتاب القدر: أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُستَفَاض الفِرْيَابِي، تحقيق: عبدالله بن حمد المنصور، أضواء السلف، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٨٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٨٧. محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٨٨. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزؤغلي بن عبدالله المعروف بـ (سبط ابن الجوزي)، تحقيق وتعليق: محمد بركات، كامل محمد الخراط، عمار ريحاوي، محمد رضوان عرقسوسي، أنور طالب، فادي المغربي، رضوان مامو، محمد معتز كريم الدين، زاهر إسحاق، محمد أنس الخن، إبراهيم الزبيق، دار الرسالة العالمية، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٨٩. مروج الذهب: المسعودي.

٩٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٩١. مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).
٩٢. مسند الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي، تحقيق نصوصه وخرج أحاديثه: حسن سليم أسد الداراني، دار السقا، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
٩٣. مسند أبي يعلى: أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٩٤. مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.
٩٥. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٩٦. معترك الأقران في إعجاز القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٩٧. معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت.

٩٨. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي فخر الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١٤٢٠هـ، ٣.

٩٩. منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام: د. حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

١٠٠. موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين: الإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا، ط ١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٠١. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج.

١٠٢. موطأ الإمام مالك: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

١٠٣. نهاية الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٠٤. نواذر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم: محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبدالله، الحكيم الترمذي، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت.

١٠٥. وسطية أهل السنة بين الفرق: محمد با كريم محمد با عبدالله، دار الراية للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

يعد هذا الكتاب لوحة فنان، تتنقل عبر العصور والأجيال، لتقف على الأحداث التي مرت بهم وعاشوها، وصارت تاريخاً وعبراً ومواعظ، وهذه اللوحة الرائعة ترى فيها صراعاً بين الحق والباطل، وتظهر فيها مداولة بين الخير والشر، وتطالعك منها معارك بين التوحيد والشرك، وتهجم عليك من بين صفحاته صيحات النذير والتحذير: أن العاقبة للمتقين، والدائرة على البغاة المعتدين، فها هم قوم نوح وقوم صالح وقوم هود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وقوم فرعون وغيرهم من الأقوام الذين ذكرهم الله في كتابه، لنأخذ منهم العظة والاعتبار، وأن نتمثل خطى الأقوام الصالحين، ونجتنب سبيل المجرمين، الذي حاربوا رسل الله والصالحين من عباده، وفي كل مرة تنتهي سيرة الظالمين: إما بالخسف أو الفرق أو الصيحة، والنكال والعذاب الشديد، فتكون العاقبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً، ومن حسن الطالع أن كثيراً من هؤلاء الأقوام سكنوا في هذه الجزيرة المباركة، وبقيت آثارهم شاهدة عليهم، تتبى بمصيرهم وما لحق بهم، فجاء هذا الكتاب صورة معبرة عن واقع كان في زمن، ثم أصبح تاريخاً يُدرّس، وعبرة يعتبر بها أولو الألباب، وحكايات يتداولها السامرون والوعاظ، أمل أن ينال هذا الكتاب إعجابكم، ويضيف لديكم معلومات قيمة وفوائد منتقاة.

المؤلف

«قسمٌ كبيرٌ من الحُكم الواردة في القرآن الكريم، وقد جاءت بأسلوب القصص، وذلك لأن القصص عادة ما تكون محببة للنفس، واستقاءً الفوائد منها يأتي بشكل سلس، يسهل على القارئ التأثر به. فكم من قصة أدمعت عيناً، أو أنارت عقلاً، أو ألانت قلباً.



والكتاب الذي بين أيديكم يعطيكم الفرصة للتأمل في هذه القصص القرآنية، والاستفادة منها بشكل مباشر وسهل».

أحمد الشقيري

ISBN: 978603283064



- أقوام في القرآن الكريم

